http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : إظهار الطريق مطبوع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ،،،،،

قال شيخنا الشيخ ماء العينين رضي الله عنه:

الحمد لله الذي بإتباع طريقته تشرح الصدور، ويرفع الحجاب عن القلب للغيوب وتدفع الشرور، وتظهر الكرامات وتدفع البليات وتقضى الحاجات في الأمور، ويكون التجلي بعد التحلي والتخلي والسلامة من الغرور، وتحصل المعارف، وتنال العوارف، وتدرأ المتالف في كل الدهور، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل من تبدى وسكن القصور، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم النشور، وبعد،،

فيقول الفقير لرحمة ربه الحق المبين عبيد ربه مالعينين بن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين، غفر الله لهم وللمسلمين آمين،، إني قد قلت قصيدة عام أربع وثمانين بعد المائتين والألف بالتبيين، أوصف فيها بعض الطريق الموصلة للإله، لبعض التلاميذ لعله يتعلق بها ويترك الملاه، ثم بعد ذلك طلب مني بعض الإخوان، الصادقين في الطلب بلا توان، أن أضع عليها شرحاً مبينا للمعاني، فأجبته إلى ذلك بعون من ليس له ثاني، وأسأله أن يجعله مما يسلي الناظر عن الأهل والمغاني، مع أني به طالب لرضا المعبود، والدعاء الخالص من أهل الركوع والسجود، وسميته ((إظهار الطريق المشتهر على اسمع ولا تغترر))، والله أسأله أن ينفعني وغيري بهما، نفعاً به أهل الله تتعاطاهما، إنه ذو الفضل العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،،

وفي النظم قلت بعدما ابتدأت،

بسم الله الرحمن الرحيم

{ اسمع ولا تغترر وما أقول فعي

إن الطريق إلى الإله بالورع }

... اللغة: الاستماع الإصغاء، والاغترار الغفلة، والقول الكلام والإيعاء الحفظ، والطريق السبيل الذي يمشى عليه إلى المقاصد، والإله المعبود، يقال ألَهَ يأله بالفتح فيهما إلهة أي عَبد، ومنه قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: {ويذرك وإلاهتك}، بكسر الهمزة أي وعبادتك، وكان يقول إن فرعون كان يعبد، ومنه قولنا الله وأصله إله على فعال بمعنى مفعول لأنه مألوه أي معبود، كقولنا إمام بمعنى مؤتم به فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام، ولو كانتا عوضا منهما لما اجتمعتا مع المعوض في قولهم: الإله، وقطعت الهمزة في النداء للزومها تفخيماً لهذا الاسم. قاله مختار الصحاح وبقي شيء من كلامه تركته اختصارا ولحصول الغرض بهذا.

(2/1)

... والورع الكف أي الترك، والورِع بكسر الراء التقي سمي بذلك لتركه للمعاصي، يقال ورع عن المحارم يرع بكسرتين ورعاً بفتحتين ورعة مثل عدة فهو ورع أي كثير الورع، وورعته عن الأمر توريعا كففته فتورع، وفي حديث عمر رضي الله عنه (ورّع اللص ولا تراعه)، أي إذا رأيته في منزلك فاكففه وادفعه ولا تنتظر ما يكون منه، وتورّع من كذا تحرّج والمعنى: أعني أنك أيها الأخ في الله تصغي أي تميل إليّ أذنك لتسمع ما أقوله لك سماع قبول، وأسمع غيرك ما أقوله ولا تغترر أي لا تغفل عنه أنت واحفظه، والذي أقول: إن الطريق إلى الله تعالى بالورع أي بالكف عن معاصي الله، واعلم أني ابتدأت في هذه القصيدة بالورع لقولهم فيه: الورع من الأعمال بمنزلة الرأس من الجسد، والرأس هو أول ما يخرج ساعة الولادة غالباً، وكذلك الورع هو أول ما يظهر على العبد حين يقبل على الله لأنه إن كان مشركاً تورع عن عبادة الأصنام، وإن كان مسلماً تورع عما كان مرتكبه من المعاصي حين إقباله على الله، وأيضاً ما من عضو متطرف من البدن يقطع إلا ويمكن أن يحيا صاحبه إلا الرأس، فإنه إن قُطع لا حياة بعده أبداً وكذلك الورع إن قُطع عن الأعمال فلا فائدة فيها ولا حياة فيها للقلب.

(3/1)

... وأيضاً جاء في الحديث: (الورع سيد للعمل) والناس إن لم يكن لهم سيد يأوون إليه لا تكون فيهم فائدة، وكذلك الأعمال إن لم يكن فيها ورع فلا فائدة فيها، وفي الحديث أيضاً (الورع حسن ولكن في العلماء أحسن) وفيه أيضاً (الورِع الذي يقف عند الشبهة) يعني أن الشخص الورِع بكسر الراء أي الموصوف بالورَع بفتح الراء هو الذي يقف عن ارتكاب الأمر عند الشبهة، أي الالتباس من الأمور المشكلات أي المشكلة معرفتها، هل هي مباحة أم حرام، فإذا توقف عنها في هذه الحالة فهو الورِع أي

التقي. وقال عليه الصلاة والسلام: (خير دينكم الورع) وقال عليه الصلاة والسلام (من لقي الله ورعاً أعطاه الله ثواب الإسلام كله) ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه: وأما الورعون فأنا أستحي أن أحاسبهم. وقالت عائشة رضي الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة هو الورع. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار لم يُقبل ذلك منكم إلا بورعٍ حاجز.

... وقال سهل التستري: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال: أداء الفرائض بالسنة وأكل الحلال بالورع واجتناب النهي من الظاهر والباطن والصبر على ذلك إلى الموت. ويقال في ذم الشبهة التي الورع تركها: من أكل شبهة أربعين يوماً أظلم قلبه. وهو تأويل قوله تعالى {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}. قال ابن المبارك: رد درهمٍ من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف درهم ومائة ألف درهم حتى بلغ إلى ستمائة ألف درهم. ومن أراد استيفاء الكلام على الورع عليه بكتابنا مبصر المتشوف شرح منتخب التصوف عند قوله: وترك شبهة به حَدُّ الورع.

(4/1)

... تنبيهات: الأول: اعلم أن قولي: اسمع المراد به عندي طلب الاستماع والقبول بالطاعة كقوله تعالى {اسمعوا وأطيعوا} لأن الاستماع بلا طاعة ليس فيه من فائدة. قال تعالى {فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه } ولتعلم أن هذه الآية قد جاءت بعد {والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى} وذلك أن رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الإعراض عن غير الله تعالى والإقبال بالكلية على طاعة الله، والمقصود من هذا اللفظ الشبه على أن الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت أي الشياطين والأصنام بمعنى أنهم أعرضوا عن عبودية كل ما سوى الله تعالى {وأنابوا إلى الله} أي رجعوا بالكلية إلى الله وأقبلوا بالكلية على طاعة الله، هم الموصوفون بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فوضع الظاهر موضع المضمر، ومنهم من قال إنه تعالى لما بين أن الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا لهم البشرى وكأن ذلك درجة عالية لا يصلها إلا الأولون، وقصر السعادة عليهم يقتضي الحرمان للأكثرين وذلك لا يليق بالرحمة التامة لا جرم جعل الحكم أعم فقال كل من اختار الأحسن في كل باب كان في زمرة السعداء ويكون هذا في الاعتقادات والعبادات والمعاملات.

(5/1)

... أما الاعتقادات فبأن ينظر فيما يقوله أهل مذاهبها ويتبع أحسنه،، مثاله أن صريح العقل شاهد بأن الإقرار بأن الإله العالم حي عالم قادر حليم حكيم رحيم أولى من إنكار ذلك فكان ذلك المذهب أولى، والإقرار بأن الله تعالى لا يجري في ملكه وسلطانه إلا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بان أكثر ما يجري في سلطان الله على خلاف إرادته كما يقوله بعض المعتزلة قبحهم الله، وأيضاً الإقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والأعضاء أولى من القول بكونه متبعضاً مؤلفاً، وأيضاً القول باستغنائه عن الزمان والمكان أولى من القول باحتياجه إليهما بل وعن جميع المخلوقات، وأيضاً القول بأن الله رحيم كريم عفو قدير يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه البتة، وكل هذه الأبواب تدخل تحت قوله {الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه} فهذا ما يتعلق باختيار الأحسن في أبواب الاعتقادات.

... وأما العبادات فمثل قولنا الصلاة التي يذكر في تحريمها "الله أكبر" وتكون النية فيها مقارنة للتكبير ويقرأ فيها سورة الفاتحة ويؤتى فيها بالطمأنينة في المواقف الخمسة ويقرأ فيها بالتشهد ويخرج منها بقوله "السلام عليكم" فلا شك أنها أحسن من الصلاة التي لا يراعى فيها شيء من هذه الأحوال، فوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة وأن يترك ما سواها، وكذلك القول في جميع العبادات.

... وأما المعاملات فكذلك مثل أنه تعالى شرع القصاص والدية، والعفو ولكنه ندب إلى العفو فقال {وأن تعفو أقرب للتقوى}. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ما سواه.

... الثاني: اعلم أني لما طلبت الاستماع نهيت عن الاغترار، والغرور هو أن يُذهل الشخصَ شيئٌ عن شيئ، قال تعالى {فلا تغرنكم الحياة الدنيا} بأن يذهلكم التمتع بها عن طلب الآخرة والسعي لها، وتقطعكم زينتها وشهواتها عن الرياضات والمجاهدات وترك الأوطان ومفارقة الإخوان في طريق الطلب، والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجه النهي صورة إليها. وفي بعض الآثار: يا ابن آدم لا يغرنك طول المهلة فإنما يعجل بالأخذ من يخاف الفوت. وعن العلاء بن زياد: رأيت الدنيا في منامي قبيحة عمشاء ضعيفة عليها من كل زينة فقلت لها من أنت أعوذ بالله منك؟ فقالت أنا الدنيا فإن سرك أن يعيذك الله مني فأبغض الدراهم. يعني لا تمسكها عن النفقة في موضع الحق. وفي الحديث (الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال) وذلك لأن الأكياس يزرعون في مزرعة الدنيا أنواع الطاعات فيغتنمون بها يوم الحصاد بخلاف من جهل أن الدنيا مزرعة الآخرة.

... ثم قال تعالى { ولا يغرنكم} بالله وكرمه وعفوه وسعة رحمته {الغرور} أي الشيطان فعول صيغة مبالغة كالشكور والصبور وسمي به الشيطان لأنه لا نهاية لغروره. وفي المفردات: الغَرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان إذ هو أفلح الغارين، وبالدنيا كما قيل الدنيا تَغرُّ وتَضرُّ وتَمّر. والمعنى ولا يغرنكم بالله الشيطان المبالغ في الغرور بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصي قائلاً اعملوا ما شئتم إن الله غفور يغفر الذنوب جميعاً وإنه غني عن عبادتكم وتعذيبكم فإن ذلك وإن أمكن لكن تناول الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول سُمٍ اعتماداً على دفع الطبيعة فالله تعالى وإن كان أكرم الأكرمين مع أهل الكرم لكنه شديد العقاب مع أهل العذاب، اللهم لا تجعلنا من أهل العذاب واجعلنا من أهل الرحمة بلا حساب.

... الثالث: اعلم أني أمرتك أن تكون لعلمك وعاء وذلك عبارة عن أن تكون حافظاً له في قلبك لقولهم: العلم فازت به الحفاظ ولا سيما أهل البوادي لقولهم: علم لم تقطع به الوادي لم ينفعك في البوادي، وذلك لا يكون إلا بالجد والمواظبة والهمة والملازمة لموضع الكتبة، ومن فعل ذلك نال ما هنالك، قال الله تعالى {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا } وقد حث الله تعالى على أخذ العلم بالقوة لقوله تعالى { يا يحي خذ الكتاب بقوة } أي بجد واجتهاد. وقيل من طلب شيئاً وجدّ وجد ومن قرع الباب ولجّ ولج. وقيل بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى, وقيل يحتاج في التعلم والتفقه إلى جِدّ الثلاثة المتعلم والأستاذ والأب إن كان في الأحياء. شعر

الجدّ يدني كل أمرٍ شاسعٍ

والجدّ يفتح كل باب مغلق

غيره:

تمنيتَ أن تمسي فقيهاً مناظراً

بغير عناءٍ والجنون فنون

وليس اكتساب المال دون مشقةٍ

تحمّلها والعلم كيف يكون

ولا بد لطالب العلم من سهر الليالي كما قيل:
بقدر الكد تكتسب المعالي

ومن طلب العلا سهر الليالي

تروم العز ثم تنام ليلاً

يغوص البحر من طلب اللئالي

وقيل اتخذ الليل جملا تدرك به أملا، قال الشاعر:
من شاء أن يحتوي آماله جُملاً

فليتخذ ليله في دركها جَمَلا

أقلل طعامك كي تُحظى به سهراً

إن شئت يا صاحبي أن تبلغ الكُمَلا

ولا بد لطالب العلم من المواظبة على الدرس والتكرار في أول الليل وآخره فإن بين العشاءين ووقت السحر وقت مبارك.
... ولا بد من الورع كما قيل:
يا طالب العلم باشر الورعا

وجنّب النوم واحذر الشبعا

داوم على الدرس لا تفارقهُ

فالعلم بالدرس قام وارتفعا

ولا بد له من الكدّ وليغتنم أيام الحداثة وعنفوان الشباب كما قيل:
بقدر الكدّ تعطى ما تروم

فمن رام المنى ليلاً يقومُ

وأيامَ الحداثة فاغتنمها

ألا إن الحداثة لا تدومُ

(8/1)

ولا بد لطالب العلم من الهمة العالية لأن الهمة هي التي يطير بها المرء إلى معالي دارَيه كما يطير الطير بجناحيه قال أبو الطيب:
على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكريم المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

ولا يجهد نفسه جهداً يضعف النفس حتى تنقطع عن العمل بل يستعمل الرفق في ذلك كله والرفق أصل عظيم في جميع الأشياء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض على نفسك عبادة الله فإن المُنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) وقال عليه الصلاة والسلام (نفسك مطيّتك فلترفق بها).

ثم لتعلم أيها الناظر أن هذه القصيدة أتيت فيها بأشياء يستدل على من أخذ بها أنه سائر على طريق الله،

منها الورع الذي جاء في هذا البيت، ومنها ما قلت في هذا البيت وهي سبعة أعني قولي

{والزهدِ والصدقِ والتصديق والسهر

والخوف والجوع مع يأسٍ عن الطمعِ}

اشتمل هذا البيت على سبعة ألفاظ مجرورة لعطفها على (بالورعِ) أعني أيضاً أن الطريق إلى الإله أيضاً بالزهد أي ترك الرغبة في الدنيا، وبالصدق أي قول الحق باللسان، وبالتصديق أي للغير من نحو الأنبياء والأولياء، وبالسهر أي تقليل المنام في الليل لأجل العبادة، وبالخوف من الله وعلامته التشمير في الطاعة، وبالجوع أي تقليل الطعام ، وبالجوع أي تقليل الطعام إما بالصيام أو بما يعادله من ترك الطعام في الليل والنهار، وباليأس أي القنوط عن الطمع أي من الطمع في المخلوقات. هذا حاصل حل ألفاظ البيت، والكلام على ما يتعلق به ينحصر في سبع تنبيهات:

الأول في الزهد،، ومعنى الزهد في نفسه عزوف القلب عن الدنيا وإعراضه عنها وتركه لها، ونظره إليها بعين التغيير والزوال، فإن صحت للعبد هذه الدرجة سلم من رق الدنيا، واستقام له الذهاب إلى الله عز وجل، وأراح قلبه وبدنه منها، وصارت له الدنيا خادمة تأتيه راغمة كما قيل إن الله عز وجل قال يا دنياي اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك، فقالت السمع والطاعة. فشتان ما بين من خدمته الدنيا ومن هو خديم لها. ويقال الزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبة عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحباً، فإذا يستدعى حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجهٍ من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً، فتارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهداً وإنما يسمى زاهداً من ترك الدراهيم والدنانير.

... فإذاً الزهد عبارة عن رغبته أي المرء عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده يشترط في المرغوب عنه أن

يكون مقدوراً عليه فإن ترك مالايقدر عليه محال، وبالترك يتبين زوال الرغبة، ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا وهي راغمة فتركها وأما أنا فعن ماذا زهدت.

(10/1)

... والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصيص هذا الاسم بترك المباحات، والمراد بعضها لا كلها إذ ترك كلها من المحال، واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة، وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيءٍ منه في العبادات، وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة فتترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الآخرة وتترك التمتع بالسراري والنسوان طمعاً في الحور العين، وتترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة وأشجارها، وتترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة، وتترك المطاعم اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة وخوفاً من أن يقال له {أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا} فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة، على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفواً لعلمه بأن ما في الآخرة خيرٌ وأبقى وأن ما سوى هذا معاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلاً.

(11/1)

... ومما يقوي رغبة العبد في الزهد في الدنيا ورغبته في الآخرة قوله صلى الله عليه وسلم (من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة) قوله (ضيعته) أي حرفته وصناعته، قوله (راغمة) أي ذليلة منقادة. وقال صلى الله عليه وسلم (إذا رأيتم العبد وقد أعطي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقي الحكمة). وقال تعالى {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثير} ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه. وعن بعض الصحابة: أنه قال: قلنا يا رسول الله أي الناس خير قال (كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان) قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب قال (التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد) قلنا يا رسول الله فمن على أثره قال (الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة) قوله (يشنأ) أي يبغض، ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا.

وقال صلى الله عليه وسلم (إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا) ويروى أن رجلاً سأله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله دلني على عمل إن فعلته أحبني الله وأحبني الناس قال (ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس). فجعل الزهد سبباً للمحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات، ومفهومه أيضاً أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى. وفي خبرٍ من طريق أهل البيت (الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء قاما فيه وإلا ارتحلا).

(12/1)

الثاني في الصدق: والصدق ضد الكذب وقد صدق في الحديث يصدق بالضم صدقاً ويقال أيضاً صدقه الحديث. قال الله تعالى {رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه } وقال صلى الله عليه وسلم (إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا). ويكفي في فضيلة الصدق أن الصدّيق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال {واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبيا) وقال {واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً} وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أربع من كن فيه فقد ربح، الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحارث: من عامل الله بالصدق استوحش من الناس. وقال بعضهم: أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض،، الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم.

وقال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفاً أي كلمة كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرأونها ويتدارسونها: < لا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العلم، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفى من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر، ولا سيئة أخزى من الكبر، ولا دواء ألين من الرفق، ولا داء أوجع من الخرق، ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غنى أشقى من الجمع، ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع " أي الرضا بما قُسم" ، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت >.

(13/1)

وفي روح البيان عند قوله تعالى { من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه} قال الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى: خص الله الإنس من بين الحيوان، ثم خص المؤمنين من بين الإنس، ثم خص الرجال من المؤمنين فقال {رجال صدقوا} فحقيقة الرجولية الصدق ومن لم يدخل في ميادين الصدق فقد خرج من حَدِّ الرجولية. واعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدقٌ في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدِّيق لأنه مبالغة في الصدق ثم هم أيضاً على درجات، فمن كان له حظ من الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه. قال أحمد بن خضرويه: من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق فإن الله تعالى مع الصادقين.

وليجتهد المرء في أن يكون صدقه في جميع ذلك مستوياً في السر والعلانية لأن بذلك ينال خير الدنيا والآتية، وقد أنشد بعض الفضلاء:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى

فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلان سراً فماله

على سعيه فضل سوى الكدّ والعنا

فما خالص الدينار في السوق نافق

ومغشوشه المردود لا يقتضي المنى

ولو تتبعت أنواع المعاني الستة لاحتجت إلى مجلدات لكن في إحياء علوم الدين من ذلك بغية لأهل الإرادات فليطالعه من شاء من أهل الحاجات.

الثالث في التصديق،،، وهو للغير كما أن الصدق للمرء في نفسه، والتصديق من أوصاف المؤمنين والمتقين كما أن التكذيب من أوصاف الظالمين والكافرين،، قال تعالى {فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكفرين والذي جاء بالصدق وصدَّق به أولئك هم المتقون } وفي الخازن: {والذي جاء بالصدق} هو رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بلا إله إلا الله، {وصدّق به } هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً بلغه إلى الخلق. وقيل {الذي جاء بالصدق} هو جبريل عليه الصلاة والسلام جاء بالقرآن، {وصدّق به} هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً. وقيل {الذي جاء بالصدق }رسول الله صلى الله عليه وسلم {وصدّق به} أبو بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه، وقيل {وصدق به} المؤمنون، وقيل {الذي جاء بالصدق الأنبياء} و {صدّق به} الأتباع، وقيل {الذي جاء بالصدق} أهل القرآن وهو الصدق يجيئون به يوم القيامة وقد أدّوا حقه، فهم الذين صدّقوا به.

(15/1)

وفي روح البيان: والموصول عبارة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومن تبعه من المؤمنين ودخل في الآية بالمعنى كل من صدّق، ولذلك قال {وأولئك هم المتقون} ودلت الآية على أن النبي عليه الصلاة والسلام يُصدقُ أيضاً بما جاء به من عند الله ويتلقاه بالقبول كما قال تعالى {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه} ومن هنا قال بعضهم إن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلٌ إلى نفسه أيضاً، وهكذا وارث الرسول فإنه لا يتردد في صدق حاله وتصديق الخبر الذي يأتيه من الله تعالى فيفيض بركة حاله إلى وجوده كله وإلى من يعتقده ويصدقه، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بالصدق وأفاض من بركات صدقه على أبي بكر رضي الله عنه فسمي صدّيقاً، وهكذا حال سائر الصديقين، وقد وعد الله أهل الصدق والتصديق بما لا مزيد عليه بقوله تعالى {لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون}.

(16/1)

وفي روح البيان: واعلم أن سبب التكفير والأجر الأحسن هو الصدق وهو من المواهب لا من المكاسب في الحقيقة، وإن كان حصول أثره منوطاً بفعل العبد ويجري في القول والفعل والوعد والعزم. قال أبو يزيد البسطامي قدس سره: أوقفني الحق سبحانه بين يديه ألف موقف في كل موقف عرض عليّ مملكة الدارين فقلت له لا أريدها فقال لي في آخر موقف يا أبا يزيد ما تريد قلت أريد أن لا أريد قال أنت عبدي حقاً وصدقاً. قلت ولولا التصديق لم يكن شرع ولا تحقيق لأن الإيمان هو التصديق. قال تعالى {الذين يؤمنون

بالغيب} أي يصدقون. وأصل الإيمان في اللغة التصديق قال تعالى {وما أنت بمؤمن لنا} أي بمصدق، فإذا فسر الإيمان بهذا فإنه لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق لا يتجزأ حتى يتصور كماله مرة ونقصانه أخرى، والإيمان في لسان الشرع عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وإذا فسر بهذا فإنه يزيد وينقص وهو مذهب أهل السنة من أهل الحديث وغيرهم.

(17/1)

وفائدة هذا الخلاف تظهر في مسألة وهي أن المصدق بقلبه إذا لم يجمع إلى تصديقه العمل بموجب الإيمان من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك هل يسمى مؤمنا أم لا؟ فيه خلاف. والغيب هنا مصدر وُضِعَ موضع الاسم فقيل للغائب غيبٌ وهو ما كان مغيباً عن العيون، قال ابن عباس: الغيب هنا كل ما أمرت بالإيمان به مما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان. وقيل الغيب هنا هو الله تبارك وتعالى وقيل القرآن وقيل الآخرة، وقيل بالآخرة وقيل بالوحي وقيل بالقدر. قاله الخازن. وفي السراج المنير: والإيمان لغة التصديق وشرعاً قيل التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء، ومجموع ثلاثة أمور،، اعتقاد الحق والإقرار به والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج، والأصح أنه التصديق وحده ويدل له أنه تعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال {كتب في قلوبهم الإيمان} وقال {وقلبه مطمئن بالإيمان} وقال {ولم تؤمن قلوبهم} وعطف عليه العمل الصالح في مواضع لا تحصى، وقرنه بالمعاصي فقال { وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا } {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى} فلو لم يكن الإيمان التصديق فقط بل هو وترك المعاصي لم يكونوا مؤمنين، فإن قيل قال الإمام الشافعي: الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص أجيب بأن ذلك محمول على الإيمان الكامل.

وفي روح البيان: قال في الكواشي: الإيمان في الشريعة هو الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان والإسلام الخضوع والانقياد، فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً إذا لم يكن معه تصديق فقد يكون الرجل مسلماً ظاهراً غير مصدق باطناً ولا يكون مصدقاً باطناً غير منقاد ظاهراً.

(18/1)

الرابع في السهر ،، والمراد به اليقظة في الليل لأجل العبادة بقيام أي صلاة أو غيره. قال علي كرم الله وجهه: سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وغمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم،

عليهم غبرة الخاشعين. وقال الحسن: أدركت أقواماً وصحبت طوائف من الصالحين ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطئونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوي له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم، إذا أجنهم الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنهم وسألوا الله أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك، والله ما سلوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة. وقال عبد الله بن داوود: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أي لا ينام طول الليل. قال جامعه عفا الله عنه: ومن يؤمل بلوغ الأربعين بل منذ تبلغ الحلم فعليك بأفعال أهل الله واجتنب أفعال أهل الملاه لعلك تنال السعادة بلا تناه.

(19/1)

وعليك بطلب حاجتك دنيوية كانت أو أخروية. وقد كان شيخنا رضي الله عنه وأرضاه في الرتبة القصوى من قيام الليل وربما قال يا بني إن الرجال لا تتفاضل بمثل العبادة في الليل. وسأل رجلٌ رجلا عن حاجة ثم توانى عن طلبها فقال له المسئول أنمت عن حاجتك؟ فقال ما نام عن حاجته من أسهرك لها، ولا عدل بها عن محجةٍ أنجح من قصدك بها. فعجب من فصاحته وقضى حاجته وأمر له بمال جزيل. قلت فكيف بمن أولى حوائجه لربنا الكريم ذي الفضل العظيم. فائدة: وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يرفعه (إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران وآية الكرسي وإنا أنزلناه في ليلة القدر وأم الكتاب فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة) وهو حديث مرفوع. ومن كلام الحكماء: إذا سألت كريماً حاجة فدعه يفكر فإنه لا يفكر إلا في خير وإذا سألت لئيماً حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل.

وكان الحسن القزاز يقول: بني هذا الأمر أي علم التصوف على ثلاثة أشياء: أن لا تأكل إلا عند الفاقة، ولا تنام إلا عند الغلبة ولا تتكلم إلا عند الضرورة لعموم خبر (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) ولخبر (حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان ولا بد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسه) ولقوله تعالى { لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس} الآية. وكان إبراهيم بن أدهم يقول: لن ينال المرء درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات: أولها يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة، والثاني يغلق باب العز ويفتح باب الذل، والثالث يغلق باب الراحة ويفتح باب

التعب، والرابع يغلق باب النوم ويفتح باب السهر، والخامس يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر، والسادس يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت.

(20/1)

الخامس في الخوف،، وهو فزع القلب من مكروه يناله أو محبوب يفوته، وسببه تفكر العبد في المخلوقات كتفكره في تقصيره وإهماله وقلة مراقبته لما يرد عليه، وكتفكره فيما ذكره الله في كتابه من إهلاك من خالفه وما أعده له في الآخرة. وقد يعبر عن الخوف بالفزع والروع بفتح الراء والرهب والخيفة والخشية، والخوفُ من الله تعالى ممدوح ومطلوب قال الله تعالى { يدعون ربهم خوفاً وطمعاً } وقال {ولمن خاف مقام ربه جنتان} وقال { ويدعوننا رغباً ورهباً} وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يدخل النار من بكى من خشية الله) أي من خوفه منه (حتى يلج اللبن في الضرع ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري عبد أبدا) وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو تعلمون ما أعلم) أي من الأهوال المخوفة (لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال (من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن لم يخف الله تعالى خاف من كل شيء).

(21/1)

وفي الرسالة القشيرية وشارحها: الخوف معنى متعلقة يوجد في المستقبل أي العبد إنما يخاف أن يحل به مكروه أو يفوته محبوب كما تقدم ولا يكون هذا إلا لشيء يحصل في المستقبل، فأما ما يكون في الحال موجوداً أو وجد في الماضي فالخوف لا يتعلق به. والخوف من الله سبحانه وتعالى هو أن يخاف العبد أن يعاقبه الله تعالى إما في الدنيا وإما في الآخرة، وقد فرض الله سبحانه على العباد أن يخافوه فقال تعالى { فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين } وقال {فإياي فارهبون} ومدح المؤمنين من الملائكة بالخوف فقال {يخافون ربهم من فوقهم} فوقيته تعالى ليست بمكان بل بالإجلال والتعظيم وكمال الاقتدار وبتنزيهه عن مماثلته لخلقه، وقد يطلق الخوف من فوقهم على العذاب بحذف مضاف أي يخافون عذاب ربهم من فوقهم وعليه فالفوقية حقيقية، والخوف أي مطلقة على ثلاث مراتب، الخوف والخشية والهيبة، فالخوف من شرط الإيمان وقضيته، فإيمان العبد يفيده الخوف، قال تعالى { وخافون إن كنتم مؤمنين} ومعنى قضيته لأن الإيمان والتصديق بالوعد والوعيد يقتضي الخوف، وكذلك يقال فيما بعده، والخشية من شرط العلم وقضيته، فعلم العبد يفيده الخشية، قال الله تعالى {إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ} وليس المراد مطلق العلماء بل المراد العلماء بالله لأنهم هم العالمون بما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لأن مدار

الخشية على معرفة المخشي والعلم بشئونه، فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه عز وجل كما قال صلى الله عليه وسلم (أنا أخشاكم لله وأتقاكم له) وغير العلماء بمعزل عن هذه المعرفة.

(22/1)

والهيبة من شرط المعرفة وقضيتها، فمعرفة العبد تفيده الهيبة لإشرافه عياناً على مظاهر الأسماء والصفات والفعال، قال الله تعالى {ويحذركم الله نفسه}، ولما كان العارفون مشغولون بربهم عمن سواه حذرهم من نفسه ولم يذكر شيئاً من عذابه لأن السبب عند مثل هؤلاء في جدهم واجتهادهم إنما هو إجلال الله تعالى ومحبته فهم رضي الله تعالى عنهم لا التفات لهم لغيره تعالى لا حباً ولا بغضاً ولا خوفاً ولا أمناً. فعلم أن الخوف يطلق على الثلاثة وأن الخوف الثاني أخص من الأول، ونظيره الهبة تنقسم إلى هبة وهدية وصدقة، الأولى للمثل غالباً والثانية للأعلى كذلك والثالثة للأقل كذلك كما هو مقرر في محله من الفقه. والخوف اسم جامع لحقيقة التقوى، والتقوى معنى جامع للعبادة، وفي هذا القدر من الكلام عليه هنا كفاية ومن أراد استيفاء الكلام عليه فعليه بتأليفنا مبصر المتشوف على منتخب التصوف.

السادس في الجوع،، وهو ضد الشبع، واعلم أن الجوع مندوب إليه بآيات القرآن الشريفة وأخباره صلى الله عليه وسلم الصريحة وبأفعاله بموافقة القريحة، وحقيقته حبس النفس عن داء الامتلاء والبطنة، وذلك من منازل العوام في ابتداء سيرهم لحاجتهم إلى النشاط في الإرادة، ورقة القلب بترك العادة ليحصلوا بذلك الحسنى وزيادة، أما الجوع عند الخواص فهو تفرق وبقاء للإحساس ووقوف مع البشرية وكل ذلك نقص، فهم رضي الله تعالى عنهم غذاء نفوسهم بالذكر وراحة أرواحهم بالفكر، فهم دائماً على موائد المعارف وشراب طوارق اللطائف رضي الله عنهم ورضوا عنه فافهم. قال الله تعالى {ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع } ثم قال في آخر الآية {وبشر الصابرين}، فبشرهم فيها بجميل الثواب على الصبر على مقاسات الجوع، وقال تعالى {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} أي حاجة إلى ما يؤثرون به وفي ذلك مدح على الجوع وترك الشهوة فهما مطلوبان وقد طلبا صريحاً في الصوم.

(23/1)

وروى الترمذي في خبر (ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه حسب ابن آدم أكلات – أي لقيمات – يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه وثلث لنفسه) فقد جمع صلى الله عليه وسلم في هذا الخبر طب الأجسام وطب الأرواح، ومن ثم كان التقلل من الدنيا ممدوحاً ولذلك زهّد الله نبيه في الدنيا لما عرضت عليه جبال تهامة تسير معه ذهباً وفضة حيث قال يا رب أجوع يوماً وأشبع

يوماً إن جعت تضرعت وإن شبعت شكرت، وفوائد ذلك كثيرة وأقلها زوال المشغلات والغفلة عن الطاعات والتلذذ بالمناجات وسائر العبادات.

... وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال جاءت فاطمة رضي الله عنها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الكسرة يا فاطمة قالت قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام. ولهذا كان الجوع من صفات القوم أي الصوفية وكثرت الحكايات عنهم في ذلك. وقيل كان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلا في كل خمسة عشر يوماً فإذا دخل شهر رمضان كان لا يأكل طعاماً حتى يرى الهلال ليلة شوال، وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح أي الخالص الذي لا يشوبه شيء طلباً للخفة في الطاعة وتحرزاً من كراهة الوصال.

(24/1)

... قلت وكان شيخنا رضي الله عنه وأرضاه يواصل واحداً وعشرينَ مراراً وتكراراً وأما سبعة وأربعة عشر فأكثر كثير فيه،، ومما اختصه الله تعالى به أن الجوع لا يضعفه عن حقوق النساء حتى أنه كان في ذلك الزمان له أربع حرائر وجوار عديدات يعطي كل واحدة حقها من الجماع. ... ومن أراد أن يستأنس بالجوع ولا يضره فليجعله بالتدريج، فقد كان بعضهم يقول أدب الجوع أن لا ينقص العبد من عادته إلا مثل أذن السنور حتى لا يبقى له إلا قدر ذلك من القوت فإنه يسهل عليه تركه وإن تركه لا يضره. وكان بعضهم يزن قوته بقطعة خشب خضراء كل ليلة وهي تنقص كل يوم نقصاً يسيراً ينتفع به ولا يؤثر فيه أثراً يضره، فإذا وصل إلى حَدٍ اعتاده واستمر عليه. وقال سهل ابن عبد الله: لما خلق الله عز وجل الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة لأن العبد إذا شبع تحركت شهواته وإذا جاع ذل وفترت همته عن كثير من الأمور الدنيويات وتفرغ القلب للاجتهاد في الطاعات، ونال العلم والحكمة بفضل خالق الأرض والسماوات ولو لم يكن فيه من المدح إلا هذا لكفى.

... السابع في اليأس عن الطمع,,: اعلم أنه ينبغي للمرء أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن ويقتصر على أقله قدراً وأخسه نوعاً، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر، فإن تشوف إلى الكثير أو طوّل أمله فاته عز القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص، وجرّهُ الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق، وارتكاب المنكرات الخارقة للمأمورات. وقد جُبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة،، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب).

...

(25/1)

... وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحي إليه أتيناه يعلمنا مما أوحي إليه فجئته ذات يوم فقال (إن الله عز وجل يقول إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحب أن يكون له ثانٍ ولو كان له الثاني لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب) وقال صلى الله عليه وسلم (منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال) وقال صلى الله عليه وسلم (يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الأمل وحب الدنيا) أو كما قال. ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة وغريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة وهي الاكتفاء بما تندفع به الحاجة من مأكل وملبس وغيرهما وهي ممدوحة ومطلوبة.

... قال الله تعالى {من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة } قال كثير من أهل التفسير الحياة الطيبة في الدنيا القناعة. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (القناعة كنز لا يفنى) أي لا ينقطع، وفي رواية (لا ينفد) لأن الإنفاق منها لا ينقطع، صاحبها كلما تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضي، وثمرة القناعة في الدنيا السلامة من المطالبة بالحقوق وما يتبعها من التعب وفي الآخرة السلامة من طول الحساب،، قال الشاعر

مُلك القناعة لا يخشى عليه ولا يحتاج فيه إلى الأنصار والخول

(26/1)

قوله الأنصار أي الأعوان، قوله والخوَل بالتحريك الخدم. روى مسلم يرفعه إلى حكيم بن حزام قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني وقال (إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى) فقال حكيم فقلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ بعدك أحداً شيئاً حتى أفارق الدنيا، وكان أبو بكر يدعوه فلم يقبل منه وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فلم يقبل منه شيئاً، فقال عمر إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم. وقال صلى الله عليه وسلم (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه) أي وهو مالا حاجة له به ومن هذا يُعلم أن اشتغال الإنسان بما يزيد

عن قدر حاجته بشاهد علم المتابعة يصير إسلامه غير حسن وذلك ظاهر لأنه خلاف القصد من حكمة الجادّة التي هي تفرغه لعبادة ربه والله أعلم. قاله نتائج الأفكار.

(27/1)

... وقال صلى الله عليه وسلم (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً) أي لا زائد عليه مما شأنه أن يشغل عما للحق تعالى، فهو حينئذ دعاء لهم رحمة بهم وشفقة عليهم. وعن أبي هريرة رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كن ورعاً تكن أعبد الناس) أي تكن من أعبدهم لأن الإنسان المتخلق بالورع يتجنب ما يضره شرعاً فيكون بسبب ذلك من أعبد الناس، (وكن قنعاً تكن أشكر الناس) لأن القنِع يكتفي بما فتح الله به عليه فتكثر نعم الله عليه فيكون أشكر الناس بخلاف الشره لأنه لا يرى من النعم إلا العظائم فيقل شكره، (وأحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً) أي تكن كامل الإيمان لأن محبة ذلك من أشرف الأخلاق وكمال الأخوة في الدين بسبب محبتك لغيرك من النعم مثل ما تحبه لنفسك، وأكمل من ذلك إيثارك الغير بذلك الفعل أو محبة إيثاره بالنعم، (وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً) أي كاملاً لأنه صلى الله علي وسلم قال (أوصاني جبريل بالجار حتى ظننته سيورّثه)، (وأقِلَّ الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب) لتوالي الغفلات عليه عن أمر الآخرة كما قال تعالى {أومن كان ميتاً فأحييناه} فجعل الكفر والغفلة عن الله موتاً، والإيمان والطاعة والمعرفة بالله حياة، ومعنى (تميت القلب) أي تزيده موتاً وإلا فأصل الضحك يميته لأن سبب الضحك كثرة الغفلات وعموم الجهالات، وذلك بإشارة (لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً).

(28/1)

... قال صاحب نتائج الأفكار: فائدة: إذا عزم العبد الموفق على القناعة وأخذ الكفاف فليأخذه من وجوهه المحمودة شرعاً ويبعد عن السبل المائلة إلى الانحراف وذلك ككسبه بنفسه من صناعة بالنصح وتجارة بالصدق أوصيد البر والبحر أو ما يجري هذا المجرى. واعلم أن أخس الاكتساب الأكل بالدين والتشبه بالزهاد، وملازمة مواطن الصدقات مع دعوى التوكل إذ ذاك أوساخ مذمومة. ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله عظني وأوجز فقال (إذا صليت فصلِّ صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غداً وأجمع اليأس مما في أيدي الناس). وقال عوف بن مالك الأشجعي كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال (ألا تبايعون رسول الله) قلنا أوليس قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال (ألا

تبايعون رسول الله) فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا قد بايعنك فعلى ماذا نبايعك قال (أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلوا الخمس وأن تسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيئاً) قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه.

... وقال عمر رضي الله عنه: إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وإنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم. وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة تمنيك * ورضاك بما يكفيك،، وفي ذلك قيل

العيش ساعات تمر

وخطوب أيام تكر

إقنع بعيشك ترضه

واترك هواك تعيش حر

فلرب حتف ساقه

ذهب وياقوت ودر

وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود وأهناهم عيشاً القنوع وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط ، وفي ذلك قيل:

أرفه ببال فتىً أمسى على ثقةٍ

أن الذي قسم الأرزاق يرزقه

فالعرض منه مصونٌ لا يدنسه

والوجه منه جديد ليس يخلُقهُ

إن القناعة من يحلل بساحتها

لم يلق في دهره شيئاً يؤرقه

وعاتب أعرابياً أخاه على الحرص فقال: يا أخي أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته وتطلب أنت ما قد كفيته، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك وما أنت فيه قد نقلت عنه، كأنك يا أخي لم تر حريصاً محروماً وزاهدا مرزوقا. وفي ذلك قيل:
أراك يزيدك الإثراء حرصاً

على الدنيا كأنك لا تموت

فهل لك غاية إن صرت يوماً

إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي حكي أن رجلاً صاد قنبرة فقالت ما تريد أن تصنع بي؟ قال أذبحك وآكلك قالت والله ما أشفي من قرم ولا أشبع من جوع، ولكن أعلمك ثلاث خصال هن خير لك من أكلي، أما واحدة فأعلمك وأنا في يدك وأما الثانية فإذا صرت على الشجرة، وأما الثالثة فإذا صرت على الجبل، قال هات الأولى قالت لا تلهفن على ما فاتك، فخلاها فلما صارت على الشجرة قال هات الثانية قالت لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين في كل درة عشرون مثقالاً، قال فعضّ على شفتيه وتلهف وقال هات الثالثة قالت إنك قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة، ألم أقل لك لا تلهفنَّ على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون، أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درتان في كل واحدة عشرون مثقالاً ثم طارت فذهبت. وهذا مثال لفرط طمع الآدمي فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدّر مالا يكون.
قوله قنبرة المشهور فيها عند أهل اللغة كما في القاموس: قبّر كسكر وقبر كصرد طائر، الواحدة بها، ويقال القنبراء جمعه قنابر ولا تقل قنبرة كقنفذة أو لغية، قال الراجز
جاء الشتاء واجثآل القنبر وجعلت عين السموم تسكر
قوله: اجثال يقال اجثال الطائر نفش ريشه، وجاء في الرجز أيضاً على الوزن الأول قال طرفة وكان يصطادها،،
يالك من قنبرة بمعمر

خلالك الجو فبيضي واصفري

قد رُفع الفخ فماذا تحذري

(30/1)

ونقّري ما شئت أن تنقري

قد ذهب الصياد عنك فابشري

لا بد من أخذك يوماً فاحذري

والسبب في ذلك أنه كان مع عمه في سفر وهو ابن سبع سنين، فنزلوا على ماء، فذهب طرفة بفخ له لمكان، فنصبه للقنابر وبقي عامة يومه لم يصد شيئاً، ثم حمل فخه وعاد إلى عمه فحملوا ورحلوا من ذلك فرأى القنابر يلتقطن ما نثر لهن من الحب فقال ذلك. قال أبو عمرو: والمراد بالجو هنا ما اتسع من الأودية، وحذف طرفة النون من قوله فماذا تحذري لوفاق القافية أو لالتقاء الساكنين.
وقال ابن السماك: إن الرجاء حبل في قلبك وقيد في رجلك فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك. وقال أبو محمد اليزيدي: دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب، فلما رآني تبسم فقلت فائدةً أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنهما وقد أضفت إليهما ثالثاً وأنشدني:
إذا سد باب عنك من دون حاجة

فدعه لأخرى ينفتح لك بابها

فإن قراب البطن يكفيك ملؤه

ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها

ولا تك مبذالاً لعرضك واجتب

ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها؟ قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج. وقال رجل للفضيل فسر لي قول كعب: فقال يطمع الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه، وأما الشره فشره النفس في هذا وفي هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له، فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به وعدته إذا مرض، ولم تسلم عليه لله عز وجل ولم تعده لله، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك. ثم قال هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان. قلت: سوى حديثٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(31/1)

وفي الجامع الصغير: قال داوود: إدخالك يدك في فم التنين إلى أن تبلغ المرفق فيقضمها خير لك من أن تسأل من لم يكن له شيء ثم كان. قال شارحه: أي من كان معدماً فصار غنياً وليس هو من بيت شرف. قال العلقمي: روى الشافعي في بعض تخاريجه عن سفيان الثوري قال أوحى الله إلى موسى عليه السلام يا موسى لأن تدخل يدك إلى المنكبين في فم التنين خير من أن ترفعهما إلى ذي نعمة قد عالج الفقر. ونظم ذلك شاعر العصر الفارضي فقال:
إدخالك اليد في التنين توصلها

لمرفقٍ منك مشتعلٌ فيقضمها

خير من المرء يرجى في الغنى وله

خصاصة سبقت قد كان يسأمها

قوله: التنين بكسر المثناة الفوقية وشدة النون المكسورة وسكون المثناة التحتية ضرب من الحيات كالنخلة السحوق أي الطويلة، قوله فيقضمها بضاد معجمة من باب سمع يسمع أي يعضها، وأصل القضم الكسر

بأطراف الأسنان. وقال غيره:
لا تحسبن الموت موت البلا

وإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا

أشد من ذاك لذل السؤال

ومما ينسب للإمام الشافعي رضي الله عنه:
أعز الناس نفساً من تراه

يعز النفس عن ذل السؤال

ويقنع باليسير ولا يبالي

بفضلٍ فات من جاهٍ ومالِ

فكم دقّت ورقت واسترقت

فضول العيش أعناق الرجال

وقال غيره:
سل الفضل أهل الفضل قِدماً ولا تسل

غلاماً ربى في الفقر ثم تمولا

فلو ملك الدنيا جميعاً بأسرها

تذكره الأيام ما كان أولا

ثم قلت:

{ والذكرِ والفكرِ واعتزال من غفلا

عن ربه واقتراب من بذين رُعي}

أعني أن الطريق إلى الإله أيضاً تكون بالذكر أي ذكر الله تعالى، وتكون بالفكر أي التفكر في مخلوقات الله، وتكون باعتزال الذي غفل عن ربه، وباقتراب الذي رعي، أي حفظ بذين، وهما الذكر والفكر، ومعنى حفظ بهما أنه حفظ بأنه موصوف بدوام الذكر ودوام الفكر.

(32/1)

... اشتمل هذا البيت على أربعة أشياء من طريق الله،، أولها الذكر ،، قال في نتائج الأفكار واعلم أن الذكر عبادة اللسان بموافقة الجنان، الذكر إذا دام أوجب الحضور في حضرة المذكور، الذكر قربة للجاهل الغافل وتقريب للعالم العاقل، إذا استغرق العابد في العبادة يجد بالذكر الزيادة، الذكر بالجهر يكون مع شهود الغيبة والغفلة لعوام المؤمنين، والإسرار به من شأن الخواص المقربين ، ذكر الفاني بالشهود، هو الغاية والمقصود، وشتان بين من ذكر ليستنير وبين من وجد قبل الذكر التنوير، ومن زعم أنه ذاكر للمذكور فقد غفل عن الحضور، موجب وجود ذكرك يا إنسان ما جبلت عليه من السهو والنسيان،، شعر:

وإني أنا المنسي من كل ذاكر

كما أنني المذكور من كل نية

يا لله من أمرٍ عجيب، كيف يُذكر الحاضر القريب. والذكر لا يختص بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير بل يشمل ذلك وكل طاعة لله تعالى على ما هو التحقيق، وهو لسانيّ وقلبي، وأفضله ما جمعهما مما جاء به الكتاب العزيز، ثم ما أمر به رسولاً من رسله أو نبياً من أنبيائه مما جاء به الكتاب أيضاً، ثم ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في الكتب المشهورة الصحيحة، ثم ما دعا به العلماء والأولياء والصالحون، ولا عبرة بمجرد النطق باللسان، مع غفلة القلب عن المذكور، إذ الثواب الجزيل الوارد فيه إنما هو مرتب عليهما معاً، والذكر أفضل من الفكر لصحة نسبة الذكر إليه تعالى دون الفكر، وما كان من نعوت الحق فهو أفضل من غيره.

(33/1)

والحاصل أن الذكر مطلقاً عبادة، نعم ما جمع اللساني والقلبي فهو أفضل ما يثاب عليه على مذهب أهل الحق. واعلم أن الذكر يكون بالثناء على الله تعالى بما له من نعوت الكمال، وبدعائه واستغفاره وسؤاله ولو في حاجات الدنيا، وبطاعته وأنواع عبادته، وأرفعها تلاوة القرآن، وبعضه أرفع من بعض من جهة ترتب الجزاء لا بالنظر لذاته إذ الكلام كلام الله تعالى وارد على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم. وهل الذكر على معنى الثناء على الله تعالى والتنزيه له أفضل أو الدعاء والتذلل والطلب منه؟ الجواب: الأول أفضل من حيث النقل والمعنى والله أعلم. والذكر ممدوح ومطلوب،، قال صاحب نتائج الأفكار: ويكفي في مدحه قوله جل شأنه {فاذكروني أذكركم} إذ لا يماثل ذكر الحق تعالى لعبده شيء لا دنيوي ولا أخروي، ومعنى مطلوب أنه مطلوب في جميع الأوقات لا يختص بوقت دون وقت، بخلاف غيره من العبادات، فقد يكون مؤقتاً بوقت ويمتنع في آخر كالصلاة مثلاً، وقد ورد في الحث على الذكر آيات كثيرة وأحاديث كذلك، قال الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً}، أي اذكروه بما هو أهله من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس ذكراً كثيراً يعم الأوقات، وسبحوه أي نزهوه عما لا يليق به بكرة وأصيلاً أي أول النهار وآخره، وليس المراد القصر على هذين الوقتين، فالتقييد بهما لإبانة فضلهما على غيرهما من الأوقات، فالمطلوب حينئذ تسبيح الإله في جميع الأوقات. قال بعضهم: وأقل مراتب الكثرة عمله بما ورد عن سيد الكمل صلى الله عليه وسلم من وظائف الأوقات والمندوب إليه في العبادات، وأعلى مراتبها أن لا توجد للعبد حالة غفلة عن الحق لحظة من الزمان ما دام يقظاً عاقلاً.

(34/1)

وقال تعالى {ولذكر الله أكبر}، أي لأن ذكر المستحق لكل صفات الكمال أكبر من كل شيء، فذكر الله تعالى أفضل الطاعات، قال صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والوَرِق، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا وما ذاك يا رسول الله قال ذكر الله) قوله (ألا أنبئكم) أي أخبركم، (بخير أعمالكم) أي بأفضلها وأكثرها ثواباً (وأزكاها) أي أكثرها طهرة لكم وبركة، (عند مليككم) أي المتصرف فيكم بالأمر والنهي، (وأرفعها في درجاتكم) أي أقوى أسباب تقربكم من رحمة ربكم وإحسانه، (وخير من إعطاء الذهب والوَرِق) أي أكثر ثواباً منه، (ومن أن تلقوا) أي وأفضل من لقيكم العدو (فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم) في الجهاد، وعند بعضهم أن ذلك من قبيل الترغيب، وإلا فالجهاد أفضل من الذكر، ولا سيما المفروض منه،

وبعضهم حمل الحديث على الإطلاق والمفهوم منه. قلت: لكنه ينبغي أن لا يشغل الجهاد على الذكر لقوله تعالى {إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون}.

(35/1)

قوله (قال ذكر الله) أي ذكره باللسان مع حضور القلب سواء كان بالتهليل أو غيره من بقية أنواع الذكر، وقراءة القرءان ذكر ودعاء ولا سيما هو في نفسه عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، وقد سمى الله تعالى القرآن ذكراً حيث قال {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} وقال {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} وسئل صلى الله عليه وسلم أي العبادة أفضل عند الله درجة يوم القيامة قال (الذاكرون الله كثيراً) قالوا يا رسول الله ومن الغازين في سبيل الله؟ فقال (لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكر الله كثيراً أفضل درجة) وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما من قوم يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) وعن أنسٍ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله) فيه دلالة على أنه بوجود الذكر يستدل على بقاء الخير، وبعدمه على وجود الأهوال، وذلك لأن الساعة لا تقوم إلا على أشرار الناس، وأما خبر (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله) أي الساعة فالمراد بالساعة فيه ما قرب منها، ويؤيده رواية (حتى يخرج الدجال)، وقد روي أن الدجال يقتله عيسى بن مريم عليه السلام، ويخرج بعده يأجوج ومأجوج فيقتلون من اتبع الدجال الذي قتله عيسى، ويتحصن عيسى ومن معه في رؤوس الجبال، فيسلط الله على يأجوج ومأجوج داءً في أعناقهم فيموتون كموت رجل واحد، ثم يتناقص الأمر حتى لا يبقى في الأرض إلا أشرار الناس وعليهم تقوم الساعة.

(36/1)

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ على جبلٍ في طريق مكة يقال له جمدان فقال سيروا هذا جمدان سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات) وعن ابن عباس {ولذكر الله} تعالى إياكم برحمته {أكبر} من ذكركم إياه بطاعته. وقال عطاء {ولذكر الله أكبر} من أن تبقى معه معصية.

واعلم أن الذكر ركن قوي أي أصل وأس عظيم في طريق الله سبحانه وتعالى، أي السبيل الموصل إليه، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحدٌ إلى الله إلا بدوام الذكر. فائدة: روى الترمذي يرفعه إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له

الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتب له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا واحد عمل أكثر من ذلك). وروى الترمذي أيضاً يرفعه إلى أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من قال في إثر صلاة الفجر وهو ثانٍ رجليه قبل أن يتكلم لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات وكان يومه ذلك في حرزٍ من كل مكروه وحرسٍ من الشيطان ولم يتبع بذنب أن يدركه في ذلك اليوم إلا أن يشرك بالله).

وروى مالك في الموطأ يرفعه إلى أبي هريرة أنه قال من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد ثلاثاً وثلاثين وكبّر ثلاثاً وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر)

(37/1)

والذكر على ضربين،، ذكر اللسان وذكر القلب، فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب، قوله على ضربين أي نوعين، والمراد الذكر من حيث هو، أما إذا أطلق الذكر في لسان الشرع فالمراد به اللساني خاصة على أن هذا بالنسبة لأول زمن الإرادة، أما العارفون المحققون فذكرهم بسائر قواهم وأجزاء تركيبهم لخروجهم عن قيد التركيب الجسماني إلى فضاء الشهود الرحماني، وله أشار سلطان العارفين حيث قال:

إذا ما بدت ليلى فكلي أعين

وإن هي ناجتني فكلي مسامع

فتأمل،، فإذا ذاكراً بلسانه وقلبه معاً فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه، فإن اقتصر على أحدهما فالثاني أفضل، ثم لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به الرياء بل يذكر بهما جميعاً ويقصد وجه الله تعالى، لأن ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك. وكان الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: الذكر منشور الولاية. أي كالمنشور في الدلالة على ثبوت الولاية لمن اتصف به من العباد، والمنشور أصله ما يكتب لمن ولي ولاية على جهة من الجهات ليعلم أهل تلك الجهة تحقق ولايته عليهم وكذلك الذكر لأنه سبب التقرب والوصول إلى الله، فهو يشهد بالولاية كما أن منشور

الولاية بين الناس يشهد للعبد بأنه ولي ولاية، فمن وفق للذكر أي اللساني المقترن بالقلبي فقد أعطي المنشور كما قال تعالى {فاذكروني أذكركم} أي بحفظي وإكرامي، ومن سُلب الذكر فقد عُزل، يعني أن من فتح له باب الذكر ورزق اللذة فيه ثم سلب الذكر بأن ابتلي بشيء من الدنيا حتى أغفله عنه فقد عُزل عن الولاية.

(38/1)

... قوله: ورزق اللذة فيه مراده بها اللذة المعنوية العقلية لا الحسية الطبيعية، على أنه يمكن أن تكون اللذة حسية بالنسبة لبعض الذاكرين. وقيل إن الشبلي كان في ابتداء أمره ينزل كل يوماً سرباً أي طريقاً ويحمل مع نفسه حزمة من القضبان، فكان إذا دخل قلبه غفلة وفتور عن العبادة ضرب نفسه بتلك الخشب أي القضبان المتقدم ذكرها حتى يكسرها على نفسه ويجد الألم، فربما كانت الحزمة تفنى قبل أن يمسي، فكان يضرب بيديه ورجليه على الحائط حتى يجد الألم فيزول عنه بذلك ما هو فيه من الغفلة والفتور، حتى يصير الخير له عادة فيستغني عن هذه المجاهدة. قلت وقد كان شيخنا والدنا الشيخ محمد فاضل بن مامين رضي الله عنه وأرضاه آمين في ابتداء أمره يأخذ سطلة فيها ماء في الليل، وكلما أراد النعاس يأخذ ملأ يداه من ذلك الماء البارد وضرب بها وجهه حتى يذهب عنه النعاس، سواءً كان ذلك شتاءً أو غيره من الأزمنة، حتى ذهب عنه المنام ذهاباً كلياً بحيث إنه لبث عامين ولم ينم ليلاً ولا نهاراً، حتى تفضل الله عليه بشيخه الشيخ سيدي المصطفى بن أحمد الكحيل الذي قرأ عليه مختصر الشيخ خليل، وقد لبث عنده أحد العامين وهو لم ينم، فقال له يوماً كم لك عن المنام قبل مجيئك لنا، قال لي عنه عام، فقال له لقد رجوت الله أن يريني قلبك فأرانيه، فإذا هو لم يبق من عروقه إلا عرق واحد، وإن انقطع متّ لأجل طول السهر الذي فعلت، والآن إني معطيك ساعتين من الليل نمهما لعل الله ينبت لك قلبك، قال فتعجبت لما قال لي ذلك لطيران النوم من عيني، فكان من قدر الله أنه لما لم يبق من الليل إلا ساعتان وهو جالس يذكر جهراً، لم يعلم بشيء إلا وإذا هو نائم، والفجر طالع وهو مستريح غاية، فتعجب وعلم أن أمر الأشياخ ربما يكون معه تصريف رباني، ثم إنه بعد ذلك صار ينامهما حتى انفك عنه حجر الشيخ صار إن شاء نام وإن شاء لم ينم.

(39/1)

... وقيل ذكر الله بالقلب سيف المريدين به يقاتلون أعدائه، وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم، وإن البلاء إذا أظل العبد أي دنا منه وفي رواية قد ينزل بالعبد فإذا فزع بقلبه إلى الله والتجأ إليه سبحانه يحيد

أي يعدل عنه في الحال كلما يكرهه. وسئل الواسطي عن الذكر فقال هو الخروج عن ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف وشدة الحب. قال صاحب نتائج الأفكار: أشار نفعنا الله به إلى أعلى أنواع الذكر لأنه قد يكون مع غفلة ومع يقظة ومع حضور ومع شهود، ومن المعلوم أن كل نوع أعلى مما قبله وأقل مما بعده، غير أن الأدنى يترجى معه الترقي إذ فيه تعرض لنفحات رحمة الله سبحانه وتعالى ما هو مقدور العبد. قال صلى الله عليه وسلم (إن لله في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لنفحات رحمة الله) وقال تعالى {فاذكروني أذكركم} فجعل بوجود ذكرك إياه وجود ذكره لك، ومن ذكره مولاه وفقه وهداه وسمع له وتولاه وداواه وأكرم مثواه.

(40/1)

... واعلم أن الغفلة الضارة ضرراً بيناً إنما هي الغفلة الطويلة، أما القصيرة فقلّ أن يتخلى عنها أحد، والمراد بفضاء المشاهدة دوام استحضار عظمة المذكور المعبر عنه بالمراقبة. وكان ذو النون المصري رحمه الله يقول: من ذكر الله تعالى ذكراً على الحقيقة – يعني الذكر الكامل وهو الاستغراق في المذكور– نسي في جنب ذكره كل شيء حتى كونه ذاكراً، وحفظ الله تعالى عليه كل شيء، وكان له عوضاً عن كل شيء. قال صاحب نتائج الأفكار: قوله نسي في جنب ذكره كل شيء أي لأن من تنبه إليه أنس به، ومن حضر معه خضع له، ومن نسي ما سواه فني به، ومن فني به غاب عمن سواه، فشهد أن الله هو الضار والنافع لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وذلك مقام الإحسان الثابت في صحيح مسلم لما سأله جبريل عنه فقال (أن تعبد الله كأنك تراه) فمتى علم الذاكر سماع مولاه لخفي ذكره ونجواه نسي في جنب ذكره ما سواه لكمال اشتغاله به، ولزم من ذلك حفظه عن كل شيء يخشاه وكان الله تعالى له في جميع أحواله عوضاً عما سواه. قوله: وحفظ الله تعالى.. أي وذلك هو موقف الفناء لأنه في هذه الحالة لا يصح له فهم وجود سوى وجود الحق تعالى لا في ذكره ولا في غيره، وذلك من ثمرات الصدق في الذكر. قوله: وكان له عوضاً عن كل شيء.. لأن من كان الله عوض ما فاته ما فقد شيئاً كما أن من فقد الله ما وجد شيئاً أعاذنا الله من ذلك. وسئل أبو عثمان فقيل له نحن نذكر الله تعالى ولا نجد في قلوبنا حلاوة فقال احمدوا الله واشكروه على أن زيَّن جارحة من جوارحكم بطاعته. أي بالذكر فإذا شكرتموه على ذلك نقلكم إلى ما هو أعلى في درجات الذكر وهو وجود اللذة به، ثم إلى ما هو أرفع من وجودها وهذا إرشاد بالغ، وفاء بقوله تعالى {لئن شكرتم لأزيدنكم}.

(41/1)

... وفي الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها قيل وما رياض الجنة فقال مجالس الذكر). قوله (إذا رأيتم رياض الجنة) يحتمل أن المراد التشبيه بجامع اللذة في كلٍ والنعيم في كلٍ، ويحتمل أنه من إطلاق المسبب على السبب فتدبر. قوله (ارتعوا) من رتعت الماشية في الكلأ أكلت ما شاءت منه والمراد تفكهوا وتلذذوا بما هو كرياض الجنة في مطلق اللذة والنعيم، أو بما يوصل إلى ذلك ويكون سبباً فيه على ما قدمناه قريباً. وعن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (يا أيها الناس ارتعوا في رياض الجنة، قلنا يا رسول الله ما رياض الجنة قال مجالس الذكر) قال المحلي تفسيراً لذلك: اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله سبحانه يُنزِل العبد منه حيث أنزله من نفسه، قال تعالى {فاذكروني أذكركم} وقال {لئن شكرتم لأزيدنكم} والكل من فضله. وفي صحيح مسلم كما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم قال (لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) قوله (إلا حفتهم الملائكة) أي إلا أحاطت بهم لإتحافهم وحفظهم، وقوله (وغشيتهم الرحمة) أي عمتهم حتى صارت كالغشاء الساتر لجميعهم، وقوله (ونزلت عليهم السكينة) أي طمأنينة القلب، وقوله (وذكرهم الله فيمن عنده) أي أثنى عليهم ثناءً يطلع عليه أهل الملأ الأعلى، والمراد أحسن إليهم على هذا الوجه.

(42/1)

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) قوله عز وجل (أنا عند ظن عبدي بي) قيل معناه بالغفران إذا استغفر وبالقبول والإجابة إذا دعا، وبالكفاية إذا طلب الكفاية، وقيل المراد تحقيق الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح، قوله (وأنا معه إذا ذكرني) يعني بالرحمة والتوفيق والهداية والإعانة، وقوله (فإن ذكرني في نفسي ذكرته في نفسي) النفس في اللغة لها معان منها ذات الشيء، والله تعالى له ذات حقيقية قال تعالى {كتب ربكم على نفسه الرحمة} أي ذاته الرحمة، ومنها الغيب، فعلى هذا يكون المعنى فإن ذكرني خالياً ذكرته بالإثابة والمجازات مما لا يطلع عليه أحد، ومنها العقوبة، قال تعالى {ويحذركم الله نفسه} أي عقوبته، ومنها الأنفة وهو المراد من قولهم فلان لا نفس له أي لا أنفة، ومنها الدم وهو المراد من قولهم ومن الطاهر ميتة مالا نفس له أي لا دم كالذباب والنمل، وتطلق تارة على الروح وعلى العين تارة وعلى الجسم أخرى. وقد ذكر بعض الفضلاء بعض معانيها في أبيات هي:

يا غزالاً قد صاد بالحسن لبي

ورماني بالسهم أهلك نفسي

يا ظريفاً حويت قوساً ولحظاً

فوق خديك منه أزهقت نفسي

يا كحيل العيون أرسلت سهماً

قد أصاب الحشا فأهرق نفسي

لا تعذب من ارتضاك طبيباً

يا خليلي يهواك قلبي ونفسي

يا حبيبي وقيت من كل سوء

وحماك الحفيظ من كل نفس

(43/1)

ولم يتعرض الشاعر للأنفة والعقوبة والغيب مما تقدم ولعله لعدم مناسبة سياقه. قوله (وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) الملأ أشراف الناس وعظماؤهم الذين يرجع إلى رأيهم، وهذا مما استدلت به المعتزلة ومن وافقهم على تفضيل الملائكة على الأنبياء، وأجيب عنه بأن الذكر غالباً يكون في جماعة لا نبي فيهم، قوله (وإن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً) وهذا من أحاديث الصفات، ويستحيل إرادة ظاهره فلا بد من التأويل، فعلى هذا يكون ذكر الشبر والذراع والباع والمشي والهرولة استعارة ومجازاً، فيكون المراد بقرب العبد من الله تعالى القرب بالذكر والطاعة والعمل الصالح، والمراد بقرب الله من العبد قرب نعَمهِ وألطافهِ وبرّهِ وكرمهِ وإحسانه إليه، وفيض مواهبه ورحمته عليه، والمعنى كلما زاد بالطاعة والذكر زدتُ بالبر

والإحسان، وإن أتاني يمشي في طاعتي أتيته هرولة أي صبّيت عليه الرحمة صبّاً وسبقته بها.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه) وفيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميّت). تنبيه: ولبعض الفضلاء في الفرق بين الميّت والميْت،

أيا سائلي تفسير ميْتٍ وميِّتٍ

فدونك قد فسّرت إن كنت تعقل

فمن كان ذا روحٍ فذلك ميّتٌ

وما الميت إلا من إلى القبر يُحملُ

ولعله مجرد غلبة استعمال وإلا فهما في الحقيقة يعني باعتبار الوضع لمن مات ومجازاً الأول قدر مشترك بينهما فقوله تعالى {إنك ميِّتٌ} ي يؤول أمره إلى الموت، وجمع بين اللغتين عدي بن الرعلاء فقال:

ليس من مات فاستراح بميْتٍ

إنما الميْتُ ميِّتُ الأحياء

إنما الميْتُ من يعيش غبياً

كاسفاً حاله قليل الرجاء

فأناسٌ يمصصون ثماداً

وأناس حلوقهم في الماء

انظر تاج العروس. وفي الجامع الصغير وشرحه السراج المنير: (الذكر) أي ذكر الله بنحو تهليل وتسبيح وتحميد (خير من الصدقة) أي صدقة النفل. وتمامه عند مخرّجه (والذكر خير من الصيام) أي أكثر ثواباً وأنفع منه. وفيهما (الذكر نعمة من نعم الله) إذ هو علامة السعادة (فأدوا شكرها) بالإكثار منه والتدبر لمعانيه. وفي تفسير السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير عند قوله تعالى {فاذكروني أذكركم} بعد جلب بعض الأحاديث المتقدمة، جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أي الأعمال أفضل فقال (أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله) وفي شرح القشيرية قال النووي: ولا تنحصر فضيلة الذكر في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها بل كل عامل لله تعالى بطاعة فهو ذاكر لله تعالى.

... قال سعيد بن جبير رضي الله عنه وغيره من العلماء، وقال عطاء رحمه الله تعالى: مجالس الذكر مجالس علم الحلال والحرام كيف تشتري وتبيع وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج وأشباه هذا فإن جميع ذلك ينقل العبد من الغفلة إلى ذكر الله وطاعته. ولو تتبعت ما في الذكر لاحتجت إلى مجلدات ومن أراد بعض فضائله فعليه بكشف الغمة أو كتابنا فاتق الرتق أو نعت البدايات أو المقاصد النورانية. وعن عبد الله بن موسى السلامي أنه قال سمعت الشبلي ينشد في مجلسه:
ذكرتك لا أني نسيتك لمحة

وأيسر ما في الذكر ذكر لساني

وكدت بلا وجدٍ أموت من الهوى

وهام عليّ القلب بالخفقان

فلما أراني الوجد أنك حاضرٌ

شهدتك موجوداً بكل مكان

فخاطبت موجوداً بغير تكلمٍ

ولاحظت معلوماً بغير عيان

(45/1)

قال صاحب نتائج الأفكار: قوله ذكرتك، أي تذكرتك على معنى دام قلبي على مراقبتك لا على معنى التذكر بعد سبق الغفلة على ما يوهمه اللفظ، وقوله: وأيسر، أي أسهل وأقل ما في أنواع الذكر ذكر لساني مع حضور قلبي وقتاً ما، وأعلاها استغراق جميع الأوقات في الذكر على الوجه المذكور مع عدم حضور السوى على القلب، وقوله: وكدت، أي قاربت وأنا بلا وجدٍ أي بلا شوق كامل أموت من الهوى أي أفنى وأنعدم مما أصابني من هواك وحبك. وقوله وهام، من الهيمان، والهيمان زيادة التعلق بالمحبوب المرتب عليه حيرة المحب، والخفقان داءٌ يعتري القلب خطر ربما يسرع به الموت، والواو في وهام مدخوله محذوف تقديره ولما فتح عليّ الوجد والأحوال هام، وقوله فلما أراني الوجد.. محصلهُ انتقاله منه إلى الوجود، وقوله: شهدتك.. جواب لما، والمراد بالمشاهدة انكشاف الأسماء والصفات بمظاهرهما لعين البصيرة، وقوله: فخاطبت موجوداً.. يعني وجوداً مطلقاً بغير تكلم لفظي بل معنوي، وقوله: ولاحظت معلوماً بغير عيان.. الملاحظة الانكشاف الحاصل باللحظ الذي هو مؤخر العين، لكن المراد مطلق الانكشاف.

... وقوله: معلوما .. أي بالآيات والبراهين الدالة على تحقيق ذاته ودوام صفاته، وقوله بغير عيان.. أي معاينة بل ببصيرة القلب بواسطة ما انكشف لها من إحاطة العلم القديم بسائر الحركات والسكنات. أهـ كلامه رحمه الله وقد جلبته كله للاحتياج إليه.

(46/1)

... ومن خصائص الذكر أنه غير موقت بوقت معين بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله تعالى إما فرضاً وإما ندباً، فالفرض كتكبيرة الإحرام والندب كالذكر في الركوع والسجود في الصلاة، وأما غير ذلك ففي سائر الأحوال، قال تعالى {الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم} أي في سائر أحوالهم وشئونهم إلا في الأوقات التي ورد الشرع باستثنائها كوقت الجلوس لقضاء الحاجة ووقت الجماع ووقت الخطبة لمن سمعها، قوله: كوقت الجلوس، أي لكراهته في مثل ذلك وما بعده مثله، وقوله: ووقت الخطبة أي تقديماً للأهم على المهم. قلت وهذا فيمن لا يظن الموت، وأما من يظن الموت فالأفضل له بل حكمه أن لا يترك الذكر ولو على قضاء الحاجة، وقد حدثني من أثق به وهو مريدنا الحسن بن سيدي أحمد أنه روي عن أسلافه ومن يوثق به أنه جده الفَغَ الخطاط نفعنا الله ببركاته وبركة أشياخنا وهو مشهور بالعلم والصلاح في زمنه أنه في مرضه الذي توفي فيه رحمه الله تعالى وجد في بعضه بعض إسهال وإذا هو لا يفتر عن الذكر في أي حالة، فقيل له في ذلك فقال لهم إنما ذلك لمن لا يظن الموت، وأما من يظن الموت

فإنه لا يسكت على الذكر في كل حال.

... قلت أيضاً وأي حالة لا يظن المرء فيها الموت لأنها من حالة يكون المرء عليها إلا وربما أتته فيها إلا حامل الصدقة فإنه ما رئي ميت حاملها. ويقال إن الصدقة لو لم يكن لها من الفضل إلا هذه لكفت.

(47/1)

الثاني منها: أعني الأشياء التي اشتمل عليها البيت من طريق الله الفكر ، أصله إعمال الخاطر في الشيء وتردد القلب في ذلك الشيء، وهو قوة متطرفة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل، ولا يمكن التفكر إلا فيما له صورة في القلب، ولهذا قيل (تفكروا في آلاء الله) أي نعمه ولا تفكروا في الله إذ الله منزه أن يوصف بصورة، فلذلك أخبر عن عباده الصالحين بأنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى، ويعلمون أن لهما خالقاً قادراً مدبراً حكيماً لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها سبحانه وتعالى كما قيل
وفي كل شيء له آية

تدل على أنه واحد

وقيل إن الفكر مقلوب عن الفرك لأن الفرك مستعمل في المعاني وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها، وقيل الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة. قاله الخازن عند قوله تعالى {ويتفكرون في خلق السماوات والأرض}. وفي مدارك التنزيل وسراج المنير: وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال (بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال أشهد أن لك رباً وخالقاً الله اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له) وقال عليه الصلاة والسلام (لا عبادة كالتفكر) وفي السراج المنير وروي عنه صلى الله عليه وسلم (لا تفضلوني على يونس بن متى) أي تفضيلاً يؤدي إلى تنقيصه وإلا فهو صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم فإنه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض. قالوا وإنما كان عمله التفكر في أمر الله تعالى الذي هو عمل القلب لأن أحداً لا يقدر أن يعمل بجوارحه في اليوم مثل عمل أهل الأرض.

(48/1)

... وفي الفخر الرازي: اعلم أنه تعالى رغب في ذكر الله، ولما آل الأمر إلى الفكر لم يرغب في الفكر في الله بل رغّب في الفكر في أحوال السماوات والأرض، وعلى وفق هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام (تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق) والسبب في ذلك أن الاستدلال بالخلق على الخالق لا يمكن وقوعه على نعت المماثلة، إنما يمكن وقوعه على نعت المخالفة فإذن نستدل بحدوث هذه المحسوسات على قِدم خالقها، وبكميتها وكيفيتها وشكلها على براءة خالقها عن الكمية والكيفية والشكل، وقوله عليه الصلاة والسلام (من عرف نفسه عرف ربه) معناه من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم، ومن عرف نفسه بالإمكان عرف ربه بالوجوب، ومن عرف نفسه بالحاجة عرف ربه بالاستغناء، فكان التفكر في الخلق ممكناً من هذا الوجه، أما التفكر في الخالق فهو غير ممكن البتة، فإذا لا يتصور حقيقته إلا بالسلوب فنقول أنه ليس بجوهرٍ ولا عرضٍ ولا مركبٍ ولا مؤلَّفٍ ولا في الجهة، ولا شك أن حقيقته المخصوصة مغايرة لهذه السلوب وتلك الحقيقة لا سبيل للعقل إلى معرفتها فيصير العقل كالواله المدهوش المتحير في هذا الموقف فلهذا السبب نهى صلى الله عليه وسلم عن التفكر في الله وأمر بالتفكر في المخلوقات، فلهذه الدقيقة أمر الله في هذه الآيات بذكره، ولما ذكر الفكر لم يأمر بالتفكر فيه بل أمر بالفكر في مخلوقاته، قال صلى الله عليه وسلم (تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك) أي مستولٍ عليه.

(49/1)

... وقال صلى الله عليه وسلم (تفكروا في خلق الله) أي مخلوقاته التي يعرف العباد أصلها جملة لا تفصيلاً كالسماء بكواكبها وحركاتها، والأرض بما فيها من جبالها وأنهارها وحيوانها ونباتها وأشجارها، فإن التفكر في ذلك يدل على عظمته ووحدانيته سبحانه وتعالى، (ولا تفكروا في الله) أي في ذاته سبحانه وتعالى (فتهلكوا) بكسر اللام لأن كل شيء يخطر بالبال فهو بخلافه، وقال صلى الله عليه وسلم (تفكروا في الخلق) أي تأملوا في المصنوعات لتعلموا أن لها صانعاً لا يعزب عنه مثقال ذرة، (ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدروه قدره) أي لا تعرفونه حق معرفته. قال رجل لأمير المؤمنين علي يا أمير المؤمنين أي الله قال أين سؤال عن مكان وكان الله ولا مكان. وقال صلى الله عليه وسلم (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنه لا تحيط به الأفكار بل تتحير فيه العقول والأنظار) وقال صلى الله عليه وسلم (تفكروا في آلاء الله) أي نعمه التي أنعم بها عليكم، (ولا تفكروا في الله) فإنه منزه عن كل ما يخطر في الأوهام من الأعراض والأجسام. قاله الجامع الصغير وشرحه العزيز.

(50/1)

... ولنرجع إلى بقية كلام الفخر،، قال: اعلم أن الشيء الذي يمكن معرفته بحقيقته المخصوصة إنما يمكن معرفته بآثاره وأفعاله، فكلما كانت أفعاله أشرف وأعلى كان وقوف العقل على كمال ذلك الفاعل أكمل، ولذلك إن العامي يعظم اعتقاده في القرآن ولكنه يكون اعتقاداً تقليدياً إجمالياً، أما المفسر المحقق الذي لا يزال يطّلع في كل آية على أسرار عجيبة ودقائق لطيفة فإنه يكون اعتقاده في عظمة القرآن أكمل، إذا عرفت هذا فنقول دلائل التوحيد محصورة في قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس، ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم كما قال تعالى {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس} ولما كان الأمر كذلك لا جرم أمر في هذه الآية بالفكر في خلق السماوات والأرض لأن دلالتها أعجب وشواهدها أعظم، وكيف لا نقول ذلك ولو أن الإنسان نظر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة رأى في تلك الورقة عرقاً واحداً ممتداً في وسطها ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة إلى الجانبين ثم يتشعب منها عروق دقيقة، ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق أخر حتى تصير في الدقة بحيث لا يراها البصير، وعند هذا يعلم أن للخالق في تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكماً بالغة وأسراراً عجيبة، وإن الله أودع فيها قوىً جاذبة لغذائها من قعر الأرض، ثم إن ذلك الغذاء يجري في تلك العروق حتى يتوزع على كل جزء من أجزاء تلك الورقة جزء من أجزاء ذلك الغذاء بتقدير العزيز العليم.

(51/1)

... ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة وكيفية التدبير في إيجادها، وإيداع القوى الغاذية والنامية فيها لعجز عنه، فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة، فحينئذ يقيس تلك الورقة إلى السماوات مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وإلى الأرض مع فيها من البحار والجبال والمعادن والنبات والحيوان، عرف أن تلك الورقة بالنسبة إلى هذه الأشياء كالعدم، فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشيء الحقير عرف أنه لا سبيل له البتة إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله في خلق السماوات والأرض، فإذا عرف بهذا البرهان النير قصور عقله وفهمه عن الإحاطة بهذا المقام لم يبق معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط به وصف الواصفين، ومعارف العارفين، بل يسلم أن كل ما خلقه ففيه حكم بالغة وأسرار عظيمة، وإن كان لا سبيل له إلى معرفتها فعند هذا يقول سبحانك، والمراد منه اشتغاله التسبيح والتهليل والتحميد والتعظيم.

... واعلم أن المراد من الخلق كله إنما هو معرفة الخالق على ما نطق به قوله عز وجل {وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون) أي ليعرفون كما أعرب عنه قوله عليه الصلاة والسلام (يقول الله تعالى: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لأُعرف) وإنما طريق ذلك النظر والتفكر فيما ذكر من شئونه تعالى

في الكتب المنزلة، والأمور المتباينة والمعتدلة، ويكفي من فضل التفكر ما ورد في لحديث (تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة). قال صاحب روح البيان: في التفضيل وجهان: أحدهما أن التفكر يوصلك إلى الله والعبادة توصلك إلى ثواب الله، والذي يوصلك إلى الله خير مما يوصلك إلى غير الله، والثاني: أن التفكر عمل القلب، والطاعة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمل القلب أشرف من عمل الجوارح.

(52/1)

... واعلم أن التفكر على ستة أنواع خمسة منها جائزة، وكل واحد منها له نتيجة مفيدة والسادس حرام ولا نتيجة له، أولها التفكر في آيات الله أي مصنوعاته وعلامات آثار صنعه ونتيجته معرفة الله، ثانيها التفكر في نعم الله ومنته على خلقه، ونتيجته محبة الله لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، ثالثها التفكر في وعد الله بالخير وثوابه بالنعيم المؤبد، ونتيجته الرغبة في أعمال الخير والزيادة منها، رابعها التفكر في وعيد الله أي تخويفه عباده بالعقاب، ونتيجته الرهبة والخوف من الله، خامسها التفكر في تفريط العبد في جانب الله وطاعته، ونتيجته الحياء من الله والندامة على ما فرّط فيه، سادسها التفكر في ذات الله وهو محرم باتفاق العلماء ولا نتيجة له إلا الضلال والإضلال لما تقدم من النصوص، ولأن للعقول حداً تنتهي إليه، وذات الله لا نهاية لها بل لا يتصور في المخلوق إلا الخلق وذات الله تعالى منزهة عن ذلك. وقد نظم شيخنا والدنا الشيخ محمد فاضل بن مامين رضي الله عنه وأرضاه آمين هذه الأنواع في قصيدة وزاد وأفاد وهي قوله:

حمداً لمن أمر بالتفكر

أقول ذا ملتمساً للأجر

نتائج الفكر فخمسة ترد

من خمسة لوجهه بها استفد

تفكرٌ في آية الله تُرى

به المعارف لمن برى البرى

وكونه في نعمٍ ومنن

ينتج حباً للكريم المحسن

في وعد ربي وثوابه يزد

لرغبةٍ في عمل الخير ترد

وفي وعيدٍ وعقاب وردت

منه لرب رهبة قد وجدت

في باب تفريطك في جنب الإله

ندامة كذا حياء منه داه

وكونه في ذات خالق الورى

تحريمه به اتفاق من قرا

لأن للعقول حداً تنتهي

إليه والجلال ليس ينتهي

كيف لعقلٍ أن يرى الذات التي

تنزهت وارتفعت عن جهة

كفى التفكر بسقفٍ عظما

رُفع من غير عمدْ يا فاهما

وفي مجاري ذي النهور والبحار

وفي الرياح والورقْ وفي الحجار

(53/1)

وفي الهوى وفي الجنود والصدور

وما تكنّ من هواجس الغرور

وهيكل الإنسان والروْحانيّةْ

تشمله وجهلنا للماهية

كيف إذا ارتفع فكرك إلى

عرشٍ وكرسيْ وغيوب ذي العلا

وفي الممات والقبور والنعيم

وفي العذاب والحساب والجحيم

كذا إذا نظرت في يوم النشور

وما جُمعْ ونسلنا من القبور

فذاك يكفي للبيب وردْ

تعظيم أجر فكره لمن قصدْ

صلاتنا على الذي حثّ عليه

مع السلام عدّ من صلى عليه

(54/1)

الثالث: الاعتزال عن أهل الغفلة،، اعلم أن العزلة فيها من الفوائد لا سيما في البداية ما لا يوصف، وقد تكلم عليها القوم كلاماً شافياً، وعن غيره كافياً وحاصل ما فيها من الفوائد ست فوائد،، الأولى: التفرغ للعبادة والفكر والاستيناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة، وملكوت السماوات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة، ولهذا قال بعض الحكماء لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى ، والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله، الذاكرون الله بالله، عاشوا بذكر الله، وماتوا بذكر الله، ولقوا الله بذكر الله، ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر، فالعزلة أولى بهم، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء، وينعزل إليه حتى قوي فيه نور النبوة، فكان الخلق لا يحجبونه عن الله تعالى، فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلاً على الله تعالى، حتى كان الناس يظنون أبا بكر خليله فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن استغراق همه بالله تعالى فقال (لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله) ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهراً والإقبال على الله سراً إلا قوة النبوة، فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إليه، فقد نقل على الجنيد أنه قال: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة، والناس يظنون أني أكلمهم، وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقاً لا يبقى لغيره فيه متسع، وذلك غير منكر، وربما كانوا يطلبون ذلك الاستغراق ولو ينالونه نوماً كما قيل:

وإني لأستغشي وما بي غشوة

لعلّ خيالاً منك يلقى خياليا

وأخرج من بين الجلوس لعلني

أحدّث عنك النفس بالسر خاليا

(55/1)

الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة، وهي أربعة: الغيبة والنميمة والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا، وقد مثل صلى الله عليه وسلم جليس السوء والجليس الصالح بقوله (مثل الجليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشرّه علق بك من ريحه، ومثل الجليس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يهب لك منه تجد ريحه) ولهذا قال الغزالي رحمه الله تعالى: من عرف من عالِم زلة حرم عليه حكايتها، لعلتين أحدهما أنها غيبة والثانية وهي أعظمها أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها، فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية، ومع ذلك أهل النصيحة قليلون والمستمعون لها أقل بل أكثر ما يورث منها في هذا الزمن البغيضة كما قيل:

وكم سقت في آثاركم من نصيحةٍ

وقد يستفيد البغضة المتنصح

(56/1)

فليتحفظ المرء بالعزلة عن البغضة وأهل المعصية. والثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين، والنفس عن الخوض فيها، والتعرض لأخطارها وقلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها، قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن ووصفها وقال (إذا رأيت الناس خرجت عهودهم وخفت أمانتهم وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه قلت فما تأمرني قال إلزم بيتك وأملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة) وروى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم قال (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعب الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن من شاهق إلى شاهق) وروى عبد الله بن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال (سيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه

إلا من فرّ بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذي يروغ، قيل له ومتى ذلك يا رسول الله قال إذا لم تُنل المعيشة إلى بمعاصي الله تعالى، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة، قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج؟ قال إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وولده، فإن لم يكن فعلى يدي قرابته، قالوا وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال يعيرونه بضيق اليد فيتكلف ما لا يطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة) وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه إذ لا يستغني المتأهل عن المعيشة والمخالطة، ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى.

(57/1)

... قال الغزالي رحمه الله تعالى: ولست أقول هذا أوان ذلك الزمان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر ولأجله قال سفيان: والله لقد حلّت العزلة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام الهرج، قلت وما الهرج قال (حين لا يأمن الرجل جليسه قلت فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان قال كفّ نفسك ويدك وادخل دارك، قال قلت يا رسول الله أرأيت إن دخل على داري قال فادخل بيتك، قلت فإن دخل عليّ بيتي قال فادخل مسجدك واصنع هكذا وقبض على الكوع، وقل ربي الله حتى تموت).

الرابعة:الخلاص من شر الناس فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن والتهمة، ومرة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة والكذب، فربما يرون منك من الأعمال والأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه، فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك. ولذلك قال بعض الحكماء لغيره: أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم قال ما هما قال:

اخفض الصوت إن نطقت بليلٍ

والتفت بالنهار قبل المقال

ليس للقول رجعةٌ حين يبدو

بقبيحٍ يكون أو بجمالٍ

ولا شك أن من اختلط بالناس، وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسدٍ، وعدوٍ يسيء الظن به ويتوهم أنه يستعد لمعاداته ونصب المكيدة عليه، وتدسيس غائلة وراءه، فالناس مهما اشتد حرصهم على أمرٍ يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم، وقد اشتد حرصهم على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها. قال المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدّق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته

فأصبح في ليلٍ من الشك مظلم

(58/1)

وقد قيل: معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار. وأنواع الشر الذي يلقاه الإنسان من معارفه وممن يختلط به كثيرة، ولسنا نطول في تفصيلها ففيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها، وفي العزلة خلاص من جميعها، حتى أنه ربما يظهر بالخلطة ذم من لا يذم أو العكس،، قال الشاعر:

من حمد الناس ولم يبلهم

ثم بلاهم ذمّ من يُحمد

وصار بالوحدة مستأنساً

يوحشه الأقرب والأبعد

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: في العزلة راحة من القرين السوء. وقال بعضهم: وفيها أيضاً ستر الأحوال عن الناس، وقد مدح الله سبحانه المتسترين فقال {يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف}. وقال الشاعر:

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة

ولكن عاراً أن يزول التجمل

...

ولا يخلو الإنسان في دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عوّارات،، الأولى في الدين والدنيا سترها والأغلب أن العزلة أستر لذلك كله.

الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس، فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد، فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى، ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعيادة المريض وحضور الولائم والأملاكات، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق، وتستقبل فيها المعاذير ولا يمكن إظهار كل الأعذار فيقولون له قمت بحق فلان وقصرت في حقنا ويصير ذلك سبب عداوة. فقد قيل من لم يعد مريضاً في وقت العيادة اشتهى موته خيفة من تخجيله إذا صحّ على تقصيره، ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ولو خصّصّ استوحشوا، وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار، فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا. قال عمرو بن العاص: كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء. وقال ابن الرومي:
عدوك من صديقك مستفاد

فلا تستكثرنّ من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه

يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام. وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة جزيلة، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك، ومهما اعتزل لم يشاهد وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع، ولذلك قال تعالى {ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم} وقال صلى الله عليه وسلم (انظروا إلى

من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم). وقال عون بن عبد الله: كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموماً، كنت أرى ثوباً أحسن من ثوبي ودابة أفره من دابتي فجالست الفقراء فاسترحت. قال ابن الأعرابي:

إذا كان باب الذل من جانب الغنى

سموت إلى العلياء من جانب الفقر

السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاسات حمقهم وأخلاقهم، فإن رؤية الثقيل هي العمى الأصغر. قيل للأعمش: لم عمشت عيناك قال من النظر إلى الثقلاء. ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال في الخبر أن من سلب الله كريميته عوضه الله عنهما ما هو خير منهما فما الذي عوضك فقال في معرض المطايبة عوضني عنهما أنه كفاني رؤية الثقلاء وأنت منهم. ومن أراد استيفاء الكلام على هذا فعليه بإحياء علوم الدين ونحوه، وهذه عجالة مما أتوا به من مقاله.

(60/1)

... الرابع مما اشتمل عليه البيت اقتراب أهل الذكر والفكر ونحوهما مما يكون اقترابه تحصل منه فائدة دينية أو دنيوية لأن المحمود من العزلة إنما هو اعتزال أهل الغفلة ونحوهم مما يكون اقترابه فيه ضرر لا سيما ضرر الدين، وأما غير ذلك منها فإنه ربما كان محموداً كما صرح به صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم من أن الجليس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يهب لك منه تجد ريحه، وحاصل ما في الخلطة من الفوائد ينحصر في سبعة فوائد وهي التعليم والتعلم والنفع والانتفاع والتأديب والاستئناس والإيناس ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق واعتياد التواضع واستفادة التجاريب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها، وكل هذه الفوائد ينال باقتراب أهل ذكر الله والفكرة في مصنوعاته، بل من لم يكن من أهلهما فهو من أهل الغفلة، وأهل الغفلة، ولنشر إلى طرف من هذه الفوائد المحمودة لمسيس الحاجة إليها ليتنبه الناظر عليها،، الفائدة الأولى: في التعليم والتعلم وهما أعظم فائدة في الخلطة، وهما أعظم العبادات في الدنيا ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة، وهما كالأصل لما بعدهما من الفوائد وما بعدهما كالفروع منهما إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة وبعضها ضروري في الدنيا، فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاصٍ بالعزلة، وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض في العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل، فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران. ولهذا قال النخعي وغيره تفقه ثم اعتزل

لقوله صلى الله عليه وسلم (من تفقه في دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهمه ورزقه من حيث لا يحتسب) وقال صلى الله عليه وسلم (ما عُبد الله تعالى بشيء أفضل من فقهٍ في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه) وفي العلم قال علي كرم الله وجهه:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم

(61/1)

على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امريء ما كان يحسنه

والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففز بعلمٍ تعش حياً به أبداً

الناس موتى وأهل العلم أحياء

ومن اعتزل قبل التعلم فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكرٍ في هوس أي إفساد أو طرف من الجنون، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها، ولا ينفك في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه ويبطل عمله بحيث لا يدري ولا ينفك اعتقاده في الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها، وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها، فيكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان، وهو يرى نفسه من العبّاد، فالعلم هو أصل الدين، فلا خير في عزلة العوامّ والجهال، أعني من لا يحسن العبادة في الخلوة، ولا يعرف جميع ما يلزمه فيها، فمثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه، فالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لا محالة مرضه، فلا تليق العزلة إلا بالعالم.

... وأما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم، ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع فهو هلاك الدين، ولذلك كان حكم العالم في هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه، فإنه لا يرى مستفيداً يطلب فائدة لدينه إلا أقل قليل، وهذا أمر شهرته تغني عن جلب

شيء عليه، ومن أراد استيفاء الكلام عليه فعليه بإحياء علوم الدين وأمثاله.

... الفائدة الثانية: النفع والانتفاع، أما النفع فهو أن ينفع الناس بماله أو ببدنه، فيقوم بحاجات الناس على سبيل الحسبة، ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب جزيل، وذلك لا ينال إلا بالمخالطة، وأما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة، وذلك أيضاً لا يتأتى إلى بالمخالطة والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة.

(62/1)

... الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه، ولم تذعن لحدود الشرع شهواته، ولهذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم، وأهل السوق للسؤال منهم كسراً لرعونة النفس، واستمداداً من بركة دعاء الصوفية المتصرفين بهممهم إلى الله سبحانه، وهذا مما يحتاج إليه في بداية الإرادة، فبعد حصول الارتياض ينبغي أن يفهم الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها، بل المراد منها أن تتخذ مركباً يقطع به المراحل، ويطوى على ظهره الطريق، والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة، وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به في الطريق، فمن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها، بل ينبغي له إذا أحسن رياضتها أن يجعلها فيما يليق بها من خدمةٍ غير مهلكة، ومخالطة غير مشغلة، وذلك هو التأديب ونعني به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم وحاله حال المعلم، وحكمه حكمه، ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم، إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعد منها من طلبة العلم، ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلب العلم كثرة.

(63/1)

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس، وهو غرض من يحضر الولائم والدعوات، ومواضع المعاشرة والأنس، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال، وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته، أو على وجه مباح، وقد يستحب ذلك لأمر الدين، وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى، وقد يتعلق بحظ النفس، ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعي النشاط في العبادة، فإن القلوب إذا أكرهت عميت، ومهما كان في الوحدة وحشة

وفي المجالسة أنس يروح القلب فهي أولى إذا الرفق في العبادة من حزم العبادة. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (إن الله لا يملُّ حتى تملّوا) وهذا أمر لا يستغنى عنه، فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروّح، وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة، وهذا عني بقوله صلى الله عليه وسلم (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق) والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين، ولذلك قال ابن عباس: لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس وقال مرة لولا مخافة الوسواس لدخلت بلاداً لا أنيس بها.

... الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته،، أما النيل فبحضور الجنائز وعيادة المرضى وحضور العيدين، وأما حضور الجمعة فلا بد منه، وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه، وذلك لا يتفق إلا نادراً، وكذلك في حضور الأملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم. وأما إنالته فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم فإنهم ينالون بذلك ثواباً. وكذلك إذا كان من العلماء وأذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة وكان هو بالتمكين سبباً فيه وكل هذا ما لم يعارضه محظور، وإلا فدرء المفاسد أولى من جلب المصالح.

(64/1)

... الفائدة السادسة: في اعتياد التواضع، فإنه من أفضل المقامات، ولا يقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة، فقد روي في الاسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنف ثلاثمائة وستين مصحفاً في الحكمة، حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة، فأوحى الله إلى نبيه قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقاً وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً، قال فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض وقال الآن قد بلغتُ رضا ربي، فأوحى الله إلى نبيه قل له إنك لن تبلغ رضاي حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم، فخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم، فأوحى الله تعالى إلى نبيه الآن قد بلغ رضاي. فكم من معتزل في بيته وباعثه الكبر، ومانعه عن المخافل أن لا يوقّر، أو لا يقّدم أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأبقى لطراوة ذكره بين الناس. وقد يعتزل خيفةً من أن تظهر مقابحه لو خالط، فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة، فيتخذ البيت ستراً على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده من غير استغراق وقتٍ في الخلوة بذكرٍ أو فكر، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يزوروا، ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين إليهم، ونحو هذا مما يمنع من التواضع، فإن هذا من العزلة مذموم ولاسيما إن علمه المرء من نفسه.

(65/1)

... الفائدة السابعة: التجارب،، فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم، والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا، وإنما تفيدها التجربة والممارسة، ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب، فالصبي إذا اعتزل بقي غمراً جاهلاً، بل ينبغي أن يستقل بالتعلم، ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك عن، ويحصّل بقية التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالطة.
ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه، وذلك لا يقدر عليه في الخلوة، فإن كل مجرب في الخلاء يُسر وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه، وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إماطتها وقهرها ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يحركها، فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث مثال دمل ممتلئ بالصديد والمُرة، وقد لا يحس صاحبه بألمه مالم يتحرك أو يمسه غيره فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن معه من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه واعتقد فقده، ولكن لو حركه محرك أو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد، وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تتفجر منه خبائثه إذا حُرِّك، وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة الطالبون لتزكية القلوب يجربون أنفسهم فمن كان يستشعر في نفسه كبراً سعى في إماطته، حتى كان بعضهم يحمل قربة ماء على ظهره بين الناس أو حزمة حطب على رأسه ويتردد في الأسواق ليجرب نفسه بذلك فإن مكائد الشيطان خفية قلّ من يتفطن لها،،

(66/1)

ولذلك حكي عن بعضهم أنه قال أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أني كنت أصليها في الصف الأول ولكن تخلفت يوماً بعذر فما وجدت موضعاً في الصف الأول فوقفت في الصف الثاني فوجدت نفسي تستشعر خجلة من نظر الناس إليّ وقد سُبقت إلى الصف الأول، فعلمت أن جميع صلواتي التي كنت أصليها كانت مشوبة بالرياء ممزوجة بلذة نظر الناس إليّ ورؤيتهم إياي في زمرة السابقين إلى الخير. فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة في استخراج الخبائث وإظهارها، ولذلك قيل السفر يسفر عن الأخلاق، فإنه نوع من المخالطة الدائمة، ومن أراد استيفاء الكلام على هذا المنوال فعليه بإحياء علوم الدين وأمثاله وفي هذا كفاية لمن له دراية.
الرابع الاقتراب من أهل الذكر والفكر وهو المشار إليه بقول {واقتراب من بذين رعي} وذلك لما جبلت عليه الطبائع من أخذ بعضها من بعض لقولهم: الطبع يسرق من الطبع، وقال صلى الله عليه وسلم (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)، قال الشاعر

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

واعلم أن اقتراب الناس يكون لأمرين إما للدنيا وإما للدين، فما كان للدنيا منها فأنواعه كثيرة وليس من غرضنا، وأما ما كان منها للدين ففوائده كثيرة وأغراض أهله فيه أثيرة، منها الاستفادة من العلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحت جنابه عن إيذاء من يشوش القلب ويصدُّ عن العبادة، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب الأقوات، ومنها الاستعانة في المهمات، فيكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال، ومنها التبرك بمجرد الدعاء، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة، فقد قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل في شفاعة أخيك.

(67/1)

وروي في غريب التفسير في قوله تعالى {ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله} قال يشفعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم. ويقال إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه، ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد. ومنها وهو خاص بأهل الذكر والفكر أنهم يذّكرون المرء الله حبّ أم كره بل لا بد لمن كثر مجالسة أهل الذكر أن يكثر من ذكر الله كما هو مشاهد بالعيان مشاهدة تغني عن التبيان ومن شاء فليجرب، كما أن من جالس أهل الغفلة جروه إلى الغفلة حبّ أم كره وأهل العلم إلى العلم وأهل الجهل إلى الجهل، والجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة وقد قيل:
فلا تصحب أخا الجهل

وإياك وإياه

فكم من جاهل أردى

حليماً حين آخاه

يقاس المرء بالمرء

إذا ما المرء ماشاه

وللشيء من الشيء

مقاييس وأشباه

وللقلب على القلب

دليل حين يلقاه

(68/1)

ومما شاهدته من ذلك وهو كثير ولله الحمد أني جمعني الله في بعض أسفاري مع قوم وإذا هم لا يشتغلون إلا بما لا يعني من الألفاظ كما هو الكثير في أكثر أهل الدنيا فالتفت إلى واحد منهم وقلت له يا فلان مالكم لا تشتغلون بغير هذا فقال لي يا فلان إنا كنا في قوم هذا شغلهم لكن إن لبثنا معكم أنتم زمناً فسترانا مشتغلين بما أنتم مشتغلون به، فكان من قدر الله أنهم لبثوا معنا شيئاً من الزمن فما شعرت بشيء إلا وإذا هم يذكرون الله جهراً أحسن ما كون بل وصاروا من جملة التلاميذ المشتغلين بالذكر آناء الليل وأطراف النهار، وهذا أكثر من أن يذكر وأشهر من أن يشهر. وقد قيل مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات فمنها ماله ظل وليس له ثمر وهو الذي ينتفع به في الدنيا دون الآخرة فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال، ومنها ماله ثمر وليس له ظل وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا، ومنها ماله ثمر وظل جميعاً وهو مثل الذي تنال بصحبته الدنيا والآخرة جميعاً، ومنها ما ليس له ظل ولا له ثمر وهو مثل الذي لا تنال بصحبته الدنيا ولا الآخرة. وقد قيل

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم

لا يستوون كما لا يستوي الشجر

هذا له ثمر حلو مذاقته

وذاك ليس له طعم ولا ثمر

ولا خير في صحبة من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله، بل لا خير في صحبة أهل الغفلة جميعاً، قال تعالى {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) وقال تعالى {فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه} وقال تعالى {فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا} وقال تعالى {واتبع سبيل من أناب إلي} ولو تتبعت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات، لكن في هذا لمن سبقت له من الله عناية كفايات. ثم قلت غفر الله لي ما قلت:

{وهمّ آخرةٍ ونبذ فانيةٍ

ونظر آتيةٍ في غير ملتمع}

... ...

(69/1)

أعني أن الطريق إلى الله تعالى أيضاً تكون بهم آخرة أي باهتمام المرء بأمور الآخرة، وتكون أيضاً بنبذ أي طرح فانية وهي الدنيا، وتكون أيضاً بنظر أي مراقبة آتية أي جائية في غير ملتمع أي منتظر وهي الموت لأنها لا تأتي إلا بغتة،، اشتمل هذا البيت على ثلاثة أشياء من أنواع الطريق إلى الله تعالى ،،

الأول:الاهتمام بالآخرة وهو أمر متعين على كل من يريد طريق الله تعالى لأن المرء لا يهتم بشيء كاهتمامه بالحياة، وبيان ذلك أنه يكون مهتماً بالمال والنساء والأولاد، فإذا خاف على نفسه هرب عن الجميع اهتماماً بحياة نفسه، وقال تعالى {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون} يعني أنها هي الحياة التامة الباقية أي لا حياة إلا حياة الآخرة، والحيوان مصدر حيي وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واواً وبه سمي ما فيه حياة حيواناً، وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليه هاهنا.

(70/1)

ولما كانوا قد غلطوا في الدارين كليهما فنزّلوا كل واحدة منهما غير منزلتها فعدّوا الدنيا وجوداً دائماً على هذه الحالة وعدّوا الآخرة عدماً لا وجود لها بوجه. قال تعالى {لو كانوا يعلمون} أي لم يؤثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة والحياة فيها عارضة سريعة الزوال. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آنس أي أبصر من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع (أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة) واعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غداً فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار، فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة ثم يصبح وهو كل يوم منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً فإنه أبداً يرى لنفسه متسعاً في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال صلى الله عليه وسلم (ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنىً مطغياً أو فقراً منسياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مقيداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر) وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه (اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك) وقال صلى الله عليه وسلم (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ) أي أنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما.

(71/1)

وقال صلى الله عليه وسلم (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة) الثاني: نبذ الفانية أي طرح الدنيا وهو أيضاً أمر متعين على كل من يريد طريق الله عز وجل لأن الدنيا ما من أحد إلا وهي عدوته فهي عدوة لله وعدوة لأولياء الله وعدوة لأعداء الله، وهذا من العجب الذي لا يرى في غيرها لأن من شأن عدو العدو أن يكون صديقاً، وبيان ذلك فيها هي أن عداوتها لله بأنها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها كما في الحديث الصحيح، وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل فإنها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها، وأما عداوتها لأعداء الله عز وجل فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكها حتى وثقوا بها وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها فاجتنوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد فهم على فراقها يتحسرون ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون بل يقال لهم {اخسئوا فيها ولا تكلمون} {أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون}.

(72/1)

والآيات الواردات في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة، بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم يبعثوا إلا لذلك، فلذلك هي حقيقة بالنبذ والطرح، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مرّ على شاة ميتة فقال (أترون هذه الشاة هينة على أهلها قالوا من هوانها ألقوها قال والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) وقال صلى الله عليه وسلم (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) وقال صلى الله عليه وسلم (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها) وقال صلى الله عليه وسلم (من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى) وقال صلى الله عليه وسلم (حب الدنيا رأس كل خطيئة) وقيل الشر كله في بيت واحد ومفتاحه حب الدنيا، وما أحسن من شبهها بخيال الظل حيث قال رحمه الله

رأيت خيال الظل أعظم عبرة

لمن كان في علم الحقائق راقي

شخوص وأصوات يخالف بعضها

لبعض وأشكال بغير وفاق

تمر وتقضى أوبة بعد أوبة

وتفنى جميعاً والمحرك باقي

ولعمري لما هذه صفته حقيق بأن ينبذ ويطرح.

(73/1)

الثالث: نظر الآتية في غير وقت منتظر وهي الموت وهو أيضاً أمر متعين على كل أحد يريد الطريق إلى الله تعالى، قال تعالى {كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} وقال تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون – وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت

فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين – ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون} وقال صلى الله عليه وسلم (أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت) وقال صلى الله عليه وسلم (كفى بالموت واعظاً) وذلك لما ينشأ بالموت للمرء من كونه يبقى كَلاشيء ويبقى ماله لغيره وتبقى نساؤه،، قال الشاعر

وما هي إلا ليلة ثم يومها

ويوم إلى يوم وشهر إلى شهر

مطايا يقربن الجديد إلى البلا

ويدنين أشلاء الصحيح إلى القبر

ويتركن أزواج الغيور لغيره

ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوفر

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي وقال (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعدّ نفسك من أصحاب القبور) ولله در القائل:

وليس بعيداً ما يكون وإن نئا

فكل بعيد لا محالة آتي

سهام المنايا راشقات لمن ترى

تصيب الفتى في روحة وبيات

وقال صلى الله عليه وسلم (الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني) وسئل صلى الله عليه وسلم عن أكيس الناس فقال (أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم له استعداداً أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص وزهدٌ في الدنيا) وقال القرطبي في تذكرته عن بعضهم: من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء تعجيل التوبة وقناعة النفس والنشاط في العبادة، ومن نسي ذكر الموت عوقب بثلاثة أشياء تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل في العبادة.

... قال جامعه عفا الله عنه: ومما شاهدته من فوائد كثرة ذكر الموت سرعة الدخول في مقام الفناء الذي هو بغية الأولياء بل إذا كثّر أحدٌ من ذكرها مع دوام الذكر حصل له شهود أن الأشياء لا تبقى زمانين أجراماً وأعراضاً، ومن شاء فليجرب وإلا فلا يكذّب،، وقد وقعت حكاية لبعض مواريدنا في هذا المعنى من أحسن ما يقصّ فيه وهي أن مريدنا الحسن بن سيدي أحمد بن الحسن الخطاطي رحمه الله كان يعتبر في هذا المعنى ويقول إنه كيف يكون، حتى تفضل الله عليه بشهوده عين يقين فصار يقول لي يا ليت أبي كان حياً فأخبره بصدق ما كان يقول لي فقلت له ما هو فقال لي إن أبي كان يقرئني التوحيد ويقول لي إن مما يجب علينا اعتقاده أن نعتقد أن الأشياء لا تبقى زمانين قال لي وكنت أقول له بعد أن أدخل يدي في جيبي وأخرجها له يا أبت أهذه اليد غير التي كانت داخلة تحت جيبي فلا والله وليست إلا هي فيقول له الأب يا بني لا تكفر، هذا مما يجب علينا اعتقاده، وهو اعتقاد محققي الأشاعرة جميعاً ولو لم ندرك حقيقته. فصار يقول لي حينئذ فوالله لا تبقى لحظة بل في كل لحظة تجدد بما لا يحصره نقل ولا عقل فسبحان من تفضل على من شاء بما شاء.

... ومما يتأكد على المرء الخوف من أن تأتيه الموت بغتة، وأنشدوا

(75/1)

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة

وأنت على سوء من الفعل عاكف

وإياك أن تمضي من الدهر ساعة

ولا لحظة إلا وقلبك راجف

وبادر بأعمال يسرك أن ترى

إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

وعن النبي صلى الله عليه وسلم (إن للموقف ألف هول أدناها الموت وإن للموت تسعة وتسعون جذبة لألف ضربة بالسيف أهون من جذبة منها فمن أراد أن يؤمنه الله من تلك الأهوال فعليه بعشر كلمات خلف كل صلاة وهي : < اللهم إني أعددت لكل هول لا إله إلا الله ولكل هم وغم ما شاء الله ولكل نعمة الحمد لله ولكل رخاء وشدة الشكر لله، ولكل أعجوبة سبحان الله، ولكل ذنب أستغفر الله ولكل مصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون ولكل ضيق حسبي الله ولكل قضاء وقدر توكلت على الله ولكل طاعة ومعصية لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم > ومن أراد أن يتفضل الله عليه بطول العمر ويهون عليه سكرات الموت فليداوم على مائة من {كل نفس ذائقة الموت} صباحاً ومساءً. وروي في حديث (يا علي من قال كل يوم إحدى وعشرين مرة اللهم بارك لي في الموت وفيما بعد الموت لم يحاسبه الله بما أنعم الله عليه في الدنيا) وقالت عائشة يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة). ثم قلت
{وحمل ما تكره النفوس قاطبة

وطرح ما ترغب الأنام مجتمع}

أعني أن الطريق إلى الله تكون أيضاً بحمل أي تحمل ما تكره النفوس قاطبة أي جميعاً وتكون أيضاً بطرح أي ترك ما أي الذي ترغب الأنام مجتمع أي تركه جميعاً، وهذان الأمران أعني حمل ما تركه النفوس وترك ما ترغبه الأنام لا يكونان إلا بالجهاد أي المجاهدة للنفس التي هي الجهاد الأكبر الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) إذ ردُّ النفسِ عن مألوفاتها من أكبر الجهاد لصعوبته ومشقته وكثرة الأجر المرتب عليه، والمجاهدة مطلوبة عند القوم وجوباً أو ندباً بحسب المجاهد فيه، وتكون المجاهدة بالأعمال التي تزيل الأخلاق الذميمة، وتحصل الأخلاق الحميدة سواءً كانت من أعمال القلوب أم الجوارح حتى لا تكون في القلب كراهية لفعل محمود ولا رغبة في فعل مذموم، وهذه هي سبل

الله التي قال تعالى فيها {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين} وهذه الآية يستدل بها على أن المجاهدة للنفس مطلوبة، والمعنى {والذين جاهدوا فينا} أي في مرضاتنا وَلِذَاتِنَا {لنهدينهم سبلنا} أي لنوطئهم إلى الطريق المبلغة لرضانا والمقربة من رحمتنا. قال جامعه عفا الله عنه: ومن أغرب ما عندي ما كنت أسمع من شيخنا رضي الله عنه وأرضاه مراراً وتكراراً أن من سعادة العبد عنده أن يعرف شيئاً تكرهه نفسه من طريق الله ليحملها على فعله أو يعرف شيئاً ترغبه نفسه من مألوفاتها ليمنعها منه، وهذا من فضل الله الذي لا يعطيه إلا هو.

(77/1)

... واعلم أن الأهم من أنواع المجاهدة لكل أحدٍ أن يكون فيما أقيم فيه العبد من تصاريف الحق في الحال، فبسبب ذلك عليه القيام بحقوق ما أقيم فيه من حقوق الحق تعالى وحقوق الخلق، ولذلك خاطب صلى الله عليه وسلم كل أحدٍ بأن أفضل الأشياء كذا وكذا فمرة سئل عن أفضل الجهاد فقال كلمة عدل عند سلطان جائر، وروي أيضاً أن أفضل الأعمال الإيمان ثم الجهاد، وروي أيضاً أن أفضلها الصلاة لوقتها، فأجاب في كل منها بما هو الأفضل في حق السامع، فمن ظهر منه قلة الكلام في العدل عند السلطان قال له أفضلها كلمة عدل عند سلطان جائر، ومن ظهر منه قلة إيمان قال أفضلها الإيمان، ومن ظهر منه قلة صلاة قال أفضلها الصلاة، فبان من ذلك أن مجاهدة كل أحد تكون بقيامه بحقوق ما أقيم فيه من أمر ربه سواءً تحملاً لفعل تكرهه النفس وسواءً تركاً لشيء ترغبه النفس.

... واعلم أن حاصل ما على المرء أن يتكلف تحمله أمران كما أن حاصل ما عليه أن يتركه أمران،، أما الأمران اللذان عليه أن يتحملهما فالأول منهما ما أمر الله بفعله تكليفاً سواءً كان ذلك المأمور واجباً أو مندوباً لأن التكليف هو إلزام ما فيه كلفة أو طلبه، قال صاحب المراقي:

وهو إلزام الذي يشق

أو طلبٌ فاهٌ بكلٍ خلقُ

يعني أنهم اختلفوا في التكليف هل هو إلزام ما فيه مشقة أو كلفة أو هو طلب ما فيه كلفة فاه أي نطق، وقال بكل من القولين خلق كثير. وهذا أعني ما أمر الله به على المرء أن يحمل نفسه عليه حبّت أم كرهت، ولا نطيل بتفاصيله لكونها موجودة في كل كتاب غالباً، والثاني هو ما يجرّ للسيادات من أفعال المروءات، وهذا مما يتعين على كل أحدٍ طلبه لاسيما رؤساء الناس كما قيل:

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يعدم والإقدام قتال

(78/1)

وهذه هي الفتوة وهي إيثار الغير على النفس وهي مختلفة قوة وضعفاً، فأدناها الإيثار بالجاه والمال وأعلاها الإيثار بالنفس زيادة عن المال وهي إنما تنشأ من كمال المروءة، وطهارة النفس من الشهوة الحيوانية، ومثل هذا في زماننا كما قال صاحب نتائج الأفكار صار كالحديث المفترى، كيف لا وقد ثبت قول بعضهم في سالف الزمان:

مررت على المروءة وهي تبكي

فقلت علام تنتحب الفتاة

فقالت كيف لا أبكي وأهلي

جميعاً دون خلق الله ماتوا

ومعنى الفتوة هي ملكة في الشخص تحمله على البذل والجود بل تقتضي قوة الإيثار، ومن علامتها أن يكون البعد ساعياً أبداً في أمر غيره بل يقضي حاجته ويترك خصومته، ويتغافل عن زلته، ويقرب من يؤذيه ويكرمه ويعتذر إلى من جنا عليه، أو يكون ساعياً فيما يعنيه من علم الكفاية بعد معرفة العين اللذين لا بد لهما من الدراية. ومما يحث المرء على قضاء حاجة المسلمين قوله صلى الله عليه وسلم (لا يزال الله في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم) ويقال إن الفتوة هي أن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك وإن عرفت فضلك ظاهراً لخفاء باطنه وخفاء العاقبة عليك لجواز التبديل والتغيير. ويقال الفتى من لا خصم له لكمال أخلاقه الحميدة وبعده عن الذميمة، وذلك بأن يزهد في الدنيا مالاً وجاهاً فلا يخاصم غيره، وإن خاصمه أعرض عنه لأن الخصومة لا تتحقق إلا لمن زاحم غيره على محبوب له، فمن زهد في الدنيا مالاً وجاهاً لا خصم له فيها بل ولا خصم له في الآخرة أيضاً كما لا يخفى.

(79/1)

... ويقال الفتوة أن تنصف غيرك ولا تنتصف منه بأن تعطي الحق الذي عليك ولا تطالب بحقك غيرك. ويقال الفتوة حسن الخلق لاشتماله على جميع الصفات الحميدة. وأما الأمران اللذان على المرء أن يتركهما فالأول منهما ما نهى الله عنه سواءً كان النهي تحريماً أو كراهة، والثاني منهما ما يقدح في المروءة ولو كان مباحاً من تهافت الناس وتكالبها على الدنيا ورغبتها في تكاثرها فإن ذلك كله مما ينبغي أن يطرحه المرء ويتركه. ثم قلت

{والأمر ممتثلاً والنهي مجتنباً

وقرب ممتثلٍ وبعد مبتدع}

أعني أن الطريق إلى الله تعالى تكون أيضاً بكون الأمر أي المأمور به ممتثلاً بصيغة اسم المفعول أيضاً مفعولاً ويكون النهي أي المنهي عنه مجتنباً أي متروكاً، وبقرب أي تقريب ممتثلٍ للسنة وببعد أي تبعيد مبتدع أي مرتكب للبدعة واللفظان بصيغة اسم الفاعل. اشتمل هذا البيت على أربعة أنواع من طريق الله تعالى، الأول: امتثال الأمر وذلك بأن يكون المرء ممتثلاً لما أمر الله تعالى به لا يخاف فيه لومة لائم، الثاني: اجتناب النهي وذلك أيضاً المرء مجتنباً لما نهاه الله تعالى عنه لا يخاف أيضاً في تركه لومة لائم، وهذا هو حاصل التقوى إذ حاصل التقوى امتثال الأمر ظاهراً وباطناً واجتناب النهي ظاهراً وباطناً، فالأقسام أربعة كما قال ابن عاشر:

وحاصل التقوى اجتناب وامتثال

في ظاهرٍ وباطنٍ بذا تنال

فجاءت الأقسام حقاً أربعة

وهي للسالك سبل المنفعة

(80/1)

قال شارحه محمد بن أحمد ميارة أخبر أن حاصل التقوى ومدارها المأمور بها في غير ما آية هي اجتناب أي للمنهيات في الظاهر والباطن وامتثال أي للمأمورات في الظاهر أيضاً والباطن، وبذلك الاجتناب والامتثال تنال التقوى وتدرك، وإذا كان كذلك فأقسامها أربعة اجتناب وامتثال في الظاهر فهذان قسمان واجتناب

وامتثال في الباطن فهذان قسمان آخران ففي ظاهر وباطن يتنازع فيه اجتناب وامتثال، وأن التقوى للسالك طريق إلى المنفعة أي الأخروية، وسبل بضم السين وسكون الباء تخفيفاً عن ضم جمع سبيل وهو الطريق.

واعلم أن التقوى في عرف الشرع هي وقاية الإنسان نفسه عما يضره في الآخرة. قال البيضاوي والمتقي اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى والوقاية فرط الصيانة، ولها ثلاث مراتب الأولى التوقي من العذاب المخلد بالتبري عن الشرك وعليه قوله تعالى {وألزمهم كلمة التقوى}، والثانية التجنب عن كل ما فيه إثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع وهو المعني بقوله تعالى {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا} والثالثة أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه بشراشره أي ينقطع إليه بنفسه وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا تقوا الله حق تقاته}. وفي تفسير ابن جزي: درجات التقوى خمس، أن يتقي العبد الكفر وذلك مقام الإسلام، وأن يتقي المعاصي والمحرمات وهو مقام التوبة، وأن يتقي الشبهات وهو مقام الورع وأن يتقي المباحات وهو مقام الزهد وأن يتقي خطور غير الله على قلبه وهو مقام المشاهدة. قال والبواعث على التقوى عشرة: خوف العقاب الدنيوي والأخروي، ورجاء الثواب الدنيوي والأخروي فهذه أربعة، وخوف الحساب، والحياء من نظر الله وهو مقام المراقبة، والشكر على نعمه بطاعته، والعلم لقوله تعالى {إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ}، وتعظيم جلال الله وهو مقام الهيبة، وصدق المحبة فيه لقول القائل

تعصي الإله وأنت تظهر حبه

(81/1)

هذا محالٌ في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته

إن المحب لمن يحب مطيع

وقال آخر

قالت وقد سألت عن حال عاشقها

بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

فقلت لو كان رهن الموت من ظمأٍ

وقلتِ قف عن ورود الماء لم يرد

انتهى.

... والسالك أي إلى الله تعالى هو المريد ويقابله المجذوب وهو المراد وهذا الثاني أعلى، قال الشيخ العارف سيدي أبو عبد الله بن عباد رضي الله عنه ونفعنا به: بنو آدم في أول نشأتهم ومبدأ خلقتهم وخروجهم من بطون أمهاتهم موسومون بالجهل وعدم العلم، قال الله تعالى {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً} ثم إن الله تعالى لما اختص بعضهم بخصوصية عنايته واختار منهم من أهّله لولايته وما ذلك إلا بحصول العلم الذي يتضمنه قوله تعالى {وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة}الذي يحقق لهم النسبة ويوجب لهم الزلفة والقربة المشار إلى ذلك بقوله تعالى {لعلكم تشكرون} جعلهم على قسمين مرادين ومريدين وإن شئت قلت مجذوبين وسالكين وكلاهما مراد ومجذوب على التحقيق، قال الله تعالى {الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب} فالمريدون السالكون إلى الله تعالى في حال سلوكهم محجوبون عن ربهم برؤية الأغيار، فالآثار والأكوان ظاهرة لهم موجودة لديهم والحق تعالى غيب عنهم فهم يستدلون بها عليه في حال ترقيهم، والمرادون المجذوبون واجههم الحق تعالى بوجهة الإكرام وتقرب إليهم فعرفوه به، فلما عرفوه على هذا الوجه انحجبت الأغيار عنهم فلم يروها فهم يستدلون به عليها في حال تدللهم فهذا حال الفريقين وبعيد ما بينهما، وذلك أن المستدل به على غيره عرف الحق الذي هو الوجود الواجب لأهله وهو المختص بوصف القدم، وأثبت الأمر المشار به إلى الآثار العدمية من وجود أصله المشار به إلى المؤثر المتحقق وجوده والمستدل بغيره عليه على عكس ما ذكرنا لأنه استدل بالمجهول على المعلوم وبالمعلوم على الموجود وبالأمر الخفي على

(82/1)

الظاهر الجلي وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الأسباب وعدم احتظائه بالوصول والاقتراب، ولا فمتى غاب حتى يستدل عليه بالأشياء الحاضرة، ومتى بعد حتى تكون الآثار القريبة هي التي توصل إليه، أو فقد حتى تكون الآثار الموجودة هي التي تدل عليه، وأنشدوا

عجبت لمن يبغي عليك شهادة

وأنت الذي أشهدته كل مشهد

وسيأتي مزيد كلام على التقوى إن شاء الله عند قولي < أتقى الورى أكرم الورى > بحول الله وقوته.
الثالث من الأمور التي اشتمل البيت عليها: قرب ممتثل، والممتثل هو المتقي، والمتقون أبداً درجاتهم متفاوتة جداً، وأعلاهم بعد النبيين والصحابة الأولياء والعلماء، والأولياء بعد الصحابة والعلماء العاملون هم الذين بهم التربية الحقيقة إلى أن يأتي وعد الله، فعلى المريد الطالب لطريق الله تعالى أن ينظر لشيخٍ يختاره لنفسه لأن المريد لا بد له من شيخ كامل مرشد يقتدي بآثاره ويهتدي بهديه وأنواره، فالشيخ واسطة الخير وحجاب الشيطان وأولياءه بل وحجاب من النار، قال تعالى { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة} وقال تعالى {اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} وهم المشائخ الكمل، ولله در القائل
وغنم مريدٍ في انقيادٍ لكاملٍ

له خبرة بالعلم والوقت والحال

هو الكنز والإكسير والكيميا لمن

أراد وصولاً أو بغى نيل آمال

(83/1)

وفي غير واحد من كتب القوم كابن عباد ونحوه رحمهم الله: ولا بد للمريد في هذه الطريق من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تأديب نفسه وتخلص من هواه، فليسلم نفسه إليه وليلتزم طاعته والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه من غير ارتياءٍ ولا تأويل ولا تردد، فقد قالوا من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه.
وقال أبو علي الثقفي رضي الله عنه لو أن رجلاً جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له أو ناهٍ يريه عيوب أعماله، ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المقامات. وقال سيدي أبو مدين رضي الله عنه: من لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من يتبعه.
وفي لطائف المنن: إنما يكون الاقتداء بولي دلك الله عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه فطوى عنك بشريته في وجود خصوصيته فألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك رعونات نفسك في كمائنها ودفائنها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك في

طريقك حتى تصل إلى الله، يوقفك على إساءة نفسك ويعرفك بإحسان الله إليك فيفيدك معرفة إساءة نفسك والهرب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه.

(84/1)

قال فإن قلت فأين مَن هذا وصفه؟ لقد دللتني على أغرب من عنقاء مغرب فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالّين وإنما قد يعوزك وجود الصدق في طلبهم. وقد قالوا قولاً مسدداً جد صدقاً تجد مرشداً، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى، قال الله سبحانه {أمن يجيب المضطر إذا دعاه} وقال سبحانه {فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم} فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى الماء، والخائف للأمن لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريباً ولك مجيباً، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك، ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك. فإذا تفضل الله على المريد بالشيخ فعليه أن يتمسك به تمسك الأعمى بقائده على شاطئ البحر، لأنهم يقولون إن من شرط المريد أن لا يتنفس نفساً إلا بإذن شيخه مبالغة وأحرى غير ذلك، وعليه أن يمتثل أمره سراً وجهراً من غير تراخٍ ولا تكاسل ولو بلغ ما بلغ. ولو تتبعت الكلام على الشيخ والمريد لاحتجت إلى مجلدات وفي كتابنا نعت البدايات من ذلك ما فيه كفاية.

(85/1)

الرابع من الأمور: بُعدُ مبتدع، والبدعة بالكسر كما في القاموس الحدث في الدين بعد الإكمال أو ما استحدث بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الأهواء والأعمال، واعلم أن أهل البدعة بأنفسهم خبيثون ومقاربتهم خبيثة، وأشد منهم الآن المتشبهون بغيرهم مع كونهم منهم وهو أمر لا ينكره إلا من ليست له خبرة بالسنة وأهلها، أو لم يتفطن في فرعها وأصلها. والمتشبهون صاروا من أهل الظاهر والباطن، وصاروا في أهل الظاعن والقاطن، نسأل الله السلامة والتوفيق ما دام متحرك أو ساكن. قال صاحب نتائج الأفكار: اعلم أنه الآن عمت البلوى بمخلِّطين يتشبهون بالمشايخ وأهل الإرادة كثرت بهم المفاسد وتبعهم زمر من العوام بواسطة عموم الجهالة وعدم المساعد على إحقاق الحق وإبطال الباطل، فيلزم أنا نشير من ذلك إلى شيء يستدل به على ما عداه والله المستعان، فمنهم من يدعي الدين والصلاح وأنه من أهل الوصول، ويأتي بحكايات من تقدم من الأكابر ويطرز بها كلامه وهو مع ذلك يشير إلى نفسه وأن عنده من ذلك طرفاً وأنه حاصل له من ذلك حاصل.

(86/1)

قال جامعه عفا الله عنه: وهذا الوصف الذي قال به هذا السيد كائن في أهل الظاهر وأهل الباطن لأن أهل الظاهر أيضاً منهم من يدعي الصلاح والعلم وأنه من أهل الأصول والفروع والوصول، ويقع في أهل الله الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً من أهل العلم العاملين، والأولياء المتقين، ويأتي بحكايات يقوي بها ما يتبعه من عثرات المؤمنين ويضل بذلك كثيراً من العوام وغيرهم، ويوقعهم في أهل الله ظاهراً وباطناً، ومنهم من له قوة على تصنيف الحكايات والمرائي التي يختلقها ولاسيما ما ابتلي به بعضهم من دعواه رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وأنه أقبل عليه وخاطبه وأمره ونهاه، بل ربما يدعي رؤيته في اليقظة مع أن هذا باب ضيق، وقل أن يقع إلا لمن على صفة عزيز وجودها في هذا الزمان، بل العدم فيه أقرب، مع أني لا أنكر ذلك لبعض الأكابر الذين حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم. قال سيدي أبو مدين رحمه الله: من مات رأى الحق ومن لم يمت لم يره. ومراده موت الحظوظ والله أعلم بالصواب وهو المؤمل في الثواب.

(87/1)

ومنهم من يشير إلى نفسه بالكرامات وخرق العادات وهو عري عنها بالاتصاف بضدها، ومنهم من يدعي رؤية المشايخ ولقيهم وهو لم يجتمع بهم، ومنهم من يدعي صحبتهم والاهتداء بهديهم وهو لم يصحبهم ولا هو على طريقتهم، ومنهم من يدعي رؤية الخضر وربما يؤكد ذلك باليمين الفاجرة ليكون أدعى للقبول منهم، وذلك تقول وافتعال لا أصل له، مع أني لا أنكر ذلك إذا وقع من أهله من أرباب الصدق، ومنهم من يقدم قبل قوله الاستشهاد بكتاب الله فيقول قال تعالى {ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة} ثم يحلف أنه رأى كذا وكذا، والعوام والجهال عند مثل هذا التمويه يصدقونه وينزلونه المنزلة التي يدعيها أسال الله السلامة من ذلك بمنه وكرمه. وبالجملة فأحوالهم الرديئة وفيما وقع التنبيه به كفاية ومقنع، هذا حال المستترين منهم،، إلى آخر كلامه رضي الله عنه. وقد بقي منه كثير من توصيفه للمخلطين المتشبهين بمن ليسوا منهم. قال جامعه عفا الله عنه: وكل ما قاله فهو حق ومن أشد ما عندي ما قد سمعته مما هو أفظع من كل شيء ما حدثني به غير واحد من أهل زمني أنهم وجدوا من ينتسب للعلم ويدعي فيه الحظ الأوفر، يأخذ بعض من يتبعه ويقول له العن المشايخ فإن لعنتهم واجبة !.

(88/1)

وحدثني أيضاً بعضهم أنه سمع بعض من ينتسب للتصوف يقول لبعض أتباعه، واحذروا من أهل العلم فإنهم ضالون مضلون. وهذا كله إن كان حقاً فنعوذ بالله منه، لأن المشايخ إن وجبت لعنتهم فمن أين لغيرهم تجب رحمتهم، وإن كان أيضاً العلماء ضالين مضلين فمن أين لغيرهم يكونون هادين مهديين، وعندي أن من يقول هذا الكلام يخاف عليه من الكفر لمخالفته له صلى الله عليه وسلم صريحاً،، قال صلى الله عليه وسلم (بجلوا المشائخ فإن تبجيل المشائخ من إجلال الله فن لم يبجلهم فليس مني) أخرجه راموز الحديث. وقال صلى الله عليه وسلم (أكرموا العلماء فإنهم ورثة الأنبياء فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله). أخرجه الراموز أيضاً والجامع الصغير. قال المناوي: والمراد العلماء بعلوم الشرع.

واعلم أن منشأ البدع واتباعها ليس إلا من قلة الأدب الناشئ عن عدم التأديب في النشأة، فقد قال صلى الله عليه وسلم (أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم) بأن تعلموهم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق. قال العلقمي: والأدب هو استعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً. وقيل هو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك. وقيل للحسن البصري: قد أكثر الناس في علم الآداب فما أنفعها عاجلاً وأوصلها آجلاً فقال الفقه في الدين والزهد في الدنيا، والقيام بما عليه من الأحكام لشغله بحفظها وتحصيلها وجهات كسبها. وقال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم. وقال عطاء: الأدب الوقوف مع المستحسنات، فقيل له وما معناه فقال أن تعامل الله بالأدب سراً وعلناً. أي في أعمال قلبك وأعمال جوارحك، فلا تتعاطى شيئاً إلا وشهدت له الشريعة بحسنه، فمن لازَمَ الآداب الشرعية حسنت حركته وسكونه وكلامه وسكوته.

وقال بعضهم: ترك الأدب يوجب الطرد فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب حتى يصير يقول ولا ينفعه المقول،،،
عودوني الوصال والوصل عذب

(89/1)

ورموني بالصدِّ والصدُّ صعبُ

زعموا حين أزمعوا أن ذنبي

فرطُ حبِّي لهم وما ذاك ذنبُ

لا وحق الخضوع عند التلاقي

ما جزا من يُحِبُّ إلا يُحَبُّ

وأحرى إن قال غير هذا. واعلم أن الذامّ لمشائخ أهل زمنه أو مواريدهم أو علماء أهل زمنه أو طالبي علمهم على الإطلاق ما أصاب، كما أن مادحهم على الإطلاق لم يوافق الصواب لأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة منها ظاهرة على الحق لا يضرها دين من خالفها إلى قيام الساعة ولله الحمد، فبسبب ذلك على المرء في كل دهر وفي كل بلد أن ينظر حتى يجد من هو على الطائفة التي على الحق ويتبعه، واعلم أيضاً أن مجالس الإنسان في كل وقتٍ وأوان تنحصر في ثمان مجالس وكل مجلسٍ تُنَال منه خصلتان فلينظر المرء ما يختار ويجالسه في الليل والنهار،، وقد جمعها بعضهم في أبيات من الرجز وهي قولهم:

مجالس الإنسان ستٌّ واثنتان

في كل مجلسٍ تُنال خصلتان

فالعلماء العلم ثم الحكمةُ

والأولياء الزهدُ والبركةُ

والفقرا قناعةٌ والصبرُ

والأمرا منه الريا والكِبرُ

والسفهاء قلة الأديان

واللهو ثم مجلس النسوانِ

ينال منه الذل والنسيان

كما بذاك زعم الشيطان

ومجلس الصبيان فيه اللعب

والضحك إذ ذاك إليه ذهبوا

والأغنياء الحرص ثم الطمع

فهاك خالصاً لما قد جمعوا

... وليحذر المرء كل الحذر من أهل البدع، فإنهم مخالفون لأهل الورع، ولابد أن تجر البدعة صاحبها إلى فسق أو إلى كفر أعاذنا الله وإياكم،، ثم قلت:
{وكفُّ سبعٍ يُرى في النَصِّ مَدْرَكُهُ

فالسبعُ إن لم تُكَفَّ فهْيَ كالسَّبُعِ}

(90/1)

أعني أن الطريق إلى الله تعالى أيضاً تكون بكفّ أي منع جوارحِ سبعٍ عما لا يحل لها، وكفها عن الحرام، يُرى أي يُبصرُ مدركه، أي موضعه الذي يؤخذ منه في النص، أي القرآن والحديث، فالجوارح السبع أي السبعة إن لم تكف أي تمنع عن الحرام فهي كالسَّبُع أي الأسد في الهلاك بمعنى أنها تغتال أي تُهلك صاحبها كاغتيال الأسد أي إهلاكه لمن قدر عليه لما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (خلق الله الجنة فحفها بالمكاره وخلق النار فحفها بالشهوات، وخلق للنار سبعة أبواب وخلق لابن آدم سبعة جوارح، فمتى أطاع الله بجارحةٍ من تلك الجوارح السبعة غلقت عنه باباً من تلك الأبواب، ومتى عصى الله بجارحةٍ من تلك الجوارح السبعة استوجب الدخول من بابٍ من تلك الأبواب) والجوارح السبعة هي السمع والبصر واللسان واليد والرجل والبطن والفرج، وسميت جوارح لأنها كواسب تكسب الخير والشر وقد استعذت من شرها وشر غيرها بقولي:
أعوذ بالله من الجوارح

وشرها وشر كل طافح

عيني يدي بطني وفرجي أذني

رجلي فمي وشر كل بدني

... وهذه الجوارح ثلاثة منها في الرأس وهي السمع والبصر واللسان، وأربعة في غير ذلك من البدن وهي اليد والبطن والفرج والرجل، وأكثر هذه الجوارح اكتساباً للمحارم البصر وغضه عن المحارم فرض عين، والدليل عليه الكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب بقوله تعالى {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم} فقرن الأمر بغض البصر مع الأمر بحفظ الفرج، وهو في الأخير للوجوب بإجماع، وأتى بِمِنْ الدالة على التبعيض ليبقى جواز النظر إلى الزوجات ونحوها، إذ لو قال يغضوا أبصارهم لزم غض البصر مطلقاً حتى لا يرى الإنسان أين يمشي.

(91/1)

وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم (العينان تزنيان وزناهما النظر) والإجماع على تحريم النظر وهي كثيرة منها النظر للمرأة أو للصبي أو غيرهما بشهوة نفس، ومنها النظر في كتاب الرجل بغير إذنه، قال عليه الصلاة والسلام (من نظر إلى كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر في جمر جهنم) ومنها التطلع إلى ما ستر عنك من حاجة أو غيرها، ومنها إجالة النظر فيما أذن لك في دخوله من بيت ونحوه من غير إذن، ومنها التطلع على عورة أحد إلا أن يكونا زوجين، وقد قيل لا ينبغي لأنه يورث العمى ويذهب بالحياء، وربما يرى ما يكره فيؤدي إلى البغضاء، وقالت عائشة رضي الله عنها ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قط وما رأى مني قط، تعني العورة وإن كنا لنغتسل من إناء واحد تختلف أيدينا فيه، ومنها نظر المرء ذكراً أو أنثى في عورة نفسه لغير ضرورة، وفي تحريمه وكراهته قولان حكاهما ابن القطان في أحكام النظر، ويقال إن فاعله يبتلى بالزنا ونحوه وقد جرب فصح كما أن مكثر لمس عورة نفسه يبتلى بالفقر وقد جرب أيضاً فصح.

(92/1)

ومنها النظر إلى الجبابرة بعين التعظيم والرضا بأحوالهم وإتباعهم البصر تعظيماً لهم، وسئل سفيان عن النظر إلى أبواب أهل الدنيا المزوقة فقال: إنما صنعوه لينظر إليه ولو لم ينظر إليه لم يصنعوه. ومنها النظر بعين الاحتقار لأحد من الخلق، وكيف تحقر من لا تقطع بأنك خير منه، ومنها النظر فيما لا يحل كتبه ولا يحل تعلمه لقصد ذلك، وهذا كله في غير النظرة الأولى، قال في الرسالة: وليس في النظرة الأولى بغير تعمد حرج، ومفهومه بأن في الثانية الحرج وكذا في الأولى بتعمد، وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه (لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك والثانية عليك) قيل معناه: لا تتبع نظر عينك نظر قلبك، وقيل معناه لا تتبع النظرة الأولى الواقعة سهواً بالنظرة الثانية التي وقعت عمداً. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: العيون مصائد الشيطان. وقال بعض الحكماء: من أرسل طرفه فقد استدعى حتفه. ويقال النظر بالعين سبب الحين أي الهلاك، وهو قوس إبليس الذي إذا ضرب به لم يخطئ. وما حفظ أحد بصره إلا حفظ الله قلبه، وقال الشاعر:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً

لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

وما لك منها غير أنك ناكح

بعينيك عينيها وهل ذاك خابر

رأيت الذي لا كله أنت قادر

عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ويستثنى من ذلك ما رخص الشارع فيه للضرورة كنظر الطبيب والشاهد وجه المرأة وما لا بد منه من عورة أو غيرها بقدر الضرورة لا ما وراء ذلك ، فإذا تحركت نفسه صرف بصره وكذلك الخاطب يرخص له نظر وجه المخطوبة ونحوه ، ومن أعظم الآفات صحبة الأحداث وتتبع الرخص والتأويلات ، ولا يجوز لذي مروءة كشف رأسه ولا مشيه حافياً إلا أن يكون عادة لا تقبح في بلاده فأما كشف الكتفين ونحوهما فمطلقا ، وأحكام النظر كثيرة لابن قطان عليها تأليف نحو الخمسة عشر كراسة.

(93/1)

ثانية الجوارح اللسان،، وقد جاء في الخبر (ما من يوم إلا والجوارح تستعيذ بالله من شر اللسان) وقال صلى الله عليه وسلم (من كفي مؤنة لقلقه وقبقبه وذبذبه دخل الجنة) اللقلق اللسان والقبقب البطن والذبذب الفرج، وقد قلت في الجميع:

من لقلقي وقبقبي وذبذبي

قد استعذت بمنيل الأرب

فلقلقي لساني ثم قبقبي

بطني وفرجيَ عُني بذبذبي

وقد قيل إن اللسان أسد الجوارح السبعة، روي أنه ما من صباح إلا والجوارح تشكوا به وتقول له ناشدناك الله إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا. وخطر اللسان عظيم لا يسلم منه إلا بالصمت، ولذلك مدحه صلى الله عليه وسلم وحث عليه فقال (من صمت نجا) وقال صلى الله عليه وسلم (الصمت حكمة وقليل فاعله، ومن كثر كلامه فيما لا يعنيه كثرت خطاياه) وقال صلى الله عليه وسلم (الصمت زين للعالم وستر للجاهل) وقال صلى الله عليه وسلم (الصمت سيد الأخلاق) وقال صلى الله عليه وسلم (من تكفل لي ما بين لحييه ضمنت له على الله الجنة) وقال ابن مسعود: بالله الذي لا إله إلا هو ما من شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان. وروي عنه أنه قال: لساني سبع إن أطلقته أكلني. وإلى ذلك أشرت بقولي في النظم : فهي كالسَّبُع ، لأنه تبين لي أن الجوارح كلها كذلك، وقال صلى الله عليه وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) والذي يجب صون اللسان عنه هو كل مالا خير فيه كما في الحديث، وأحرى ما فيه شر ؛ من الكذب وشهادة الزور والفحشاء أي الكلام القبيح والغيبة والنميمة والباطل كله، ولو تتبعت ما ينبني على اللسان لاحتجت إلى مجلدات، ولكن لا بد من كلمات على بعض هذه الكلمات لتحصيل بعض الفائدات،، فأقول وبالله التوفيق أما الكذب فهو حرام كتاباً وسنةً وإجماعاً وحقيقة الكذب الإخبار عن الشيء على غير ما هو عليه والصدق ضده، والشك في الحديث كالكذب فيه، قال مالك: من حدث بكل ما سمع فهو كاذب، فينبغي ألا يحدث الإنسان

إلا بما علمه قطعاً أو سمعه أو نقل إليه نقلاً متواتراً، ثم إن كان الكذب سهواً فلا إثم فيه ولا حرج لقوله صلى الله عليه وسلم (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) وإن كان عمداً فهو محرم بإجماع في الجملة، وإن كان تعرض له أحكام الشريعة الخمسة باعتبار متعلقاته، والدليل على تحريمه من الكتاب قوله تعالى {ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين} ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم (ثلاث من كن فيه فهو منافق من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان) ومعناه منافق في العمل لا في الاعتقاد.

... وفي رواية (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر) وقال صلى الله عليه وسلم (إياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً وعليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله من الصدّيقين) إلى غير ذلك مما ورد فيه، والإجماع على أن الكذب محرم، فمن أباحه استُفسر فإن أباح ما هو حرام منه فإنه يستتاب ثلاثاً فإن تاب وإلا قُتِل، ثم إن الكذب مع هذا كله قد يكون واجباً مثل أن يكذب لإنقاذ نفسٍ أو مال كما إذا هرب الإنسان من ظالم إلى جهة فيسألك عنه فتقول جاز يميناً وهو على الشمال، أو يكون مال لمسلم وإن نسب له أكله الظالم وإن نسب لغيره لم يأكله فتقول له أنه لذلك الغير ليسلم، فالكذب في هذا واجب يؤجر عليه فإن صدق أثم، وعليه أن يحلف إذا طلب منه اليمين ولا يلزمه الطلاق به.

(95/1)

... ويكون مستحباً وهو الكذب على الكفار بأن يقول لهم إن المسلمين تهيئوا للقاكم بكثرة العَدَد والعُدَد وتأمر عليهم البطل فلان ونحو ذلك، ويكون مكروهاً وهو الكذب للزوجة، ويكون مباحاً وهو الكذب للإصلاح بين المسلمين إذا وقعت بينهم شحناء وقيل في هذا أيضاً إنه مندوب، وروي أيضاً أن الكذب على الزوجة جائز وأما غير هذا من الكذب فهو حرام ولو مزاحاً وأحرى غير ذلك لا سيما إن كان فيه قطع حق مسلم.

والزور أيضاً هو الإخبار بالشيء على غير ما هو عليه إلا أنه خاص بالشهادة، مشتق من زور الصدر وهو اعوجاجه لا من تزوير الكلام الذي هو تحسينه، وقال الزناتي من زوّر زَوَراً إذا مال عن الصواب، ودليل تحريمه الكتاب وهو قوله تعالى {والذين لا يشهدون الزور} وقوله أيضاً {وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً}، والسنة وهو قوله صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قالوا بلى يا رسول الله قال

الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قول الزور) وأجمعت الأمة على تحريمه.

... والفحشاء مأخوذ من فحش الشيء إذا ظهرت قبائحه واشتهرت قولاً كان أو فعلاً، والمراد هنا القول القبيح، قال صلى الله عليه وسلم (إن الله يكره الفاحش البذيء) وهو الذي لا يكني عن الألفاظ المتفاحشة، فيدخل فيه كل ما يستحيي أن يذكر بمحضر أهل الفضل والصلاح، ومن يجب توقيره كالآباء والإخوة كذكر الغائط والجماع بألفاظ العامة السفهاء والسفلة من الناس.

(96/1)

... والغيبة وهي أن تقول في أخيك المسلم ما لو سمعه لكرهه مما فيه سواء كان ذلك في نفسه أو بدنه أو ماله أو ولده أو في فعله أو قوله أو في دينه أو دنياه حتى في ثوبه وردائه ودابته، وكل ما يتعلق به حتى قولك واسع الكم أو طويل الذيل سواء كان تصريحاً أو تعريضاً أو بالإشارة أو الرمز، وهي محرمة بالكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب فقوله تعالى {ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه} قيل وجه التشبيه بينهما أن الميت لا ينتصر لنفسه، وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم (إياكم والغيبة فإنها أشد من الزنا) وفي رواية (فإنها أشد من ثلاثين زنية في الإسلام) وقال صلى الله عليه وسلم (من أراد أن يفرق حسناته يميناً وشمالاً فليغتب الناس) وقال عليه الصلاة والسلام (الغيبة تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب الرقيق) وقال (أتدرون من المفلس من أمتي قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع له، فقال إنما المفلس من أمتي الذي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وقد شتم هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا نفدت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم وطرحت عليه ثم طرح في النار) خرجه مسلم عن أبي هريرة.

... وقال صلى الله عليه وسلم (من اغتيب أخوه بمحضره فنصره نصره الله في الدنيا والآخرة وإن لم ينصره أذله في الدنيا والآخرة) قال ابن المبارك: لو كنت ممن يغتاب الناس لاغتبت أبوي لأنها أحق بحسناتي. قال بعض العلماء: الغيبة صاعقة الدين، وهي بساتين الملوك ومراتع الناس ومزبلة المتقين، وفاكهة القراء، وإدام كلاب الناس. وتباح الغيبة في مواضع قيل فيها:
ألا إن اغتياب الناس ذنبٌ

عظيم الوصف من أردى المناكر

فجنب غيبة إلا حروفاً

ببيتٍ جاء عن بعض الأكابر

تظلم واستغث واستفت حذّر

وعرّف بدعة فسق المُجاهر

(97/1)

ويقال إن الغيبة لا تكون في قوم معلومين حتى لو ذكر أهل مصر من الأمصار فقال هم قوم بخلاء أو قوم سوء لا يكون غيبة لأن فيه البر والفاجر وعُلم أنه لم يرد الجميع والكف عن ذلك أفضل ولو تتبعت ما قيل فيها لاحتجت إلى كثير وفي هذا كفاية، حتى إن من تشديدهم فيها يقولون إن منها قول الشخص لا حول ولا قوة إلا بالله فلان لا يسهل بنا أن يفعل هذا الفعل فهو حرام حيث كره ذلك وإن كان ذلك القول على سبيل الشفقة.

وأما النميمة فهي أن ينقل الإنسان إلى غيره عن غيره ما يكره المنقول إليه سماعه أو المنقول التحدث به وسواء كان ذلك بالكلام أو بالكتابة أو بغيرهما وهي محرمة بالكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى {ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم} وقال {ويل لكل همزة لمزة} وهو الذي يعيب الناس ويفسد بينهم، وقال صلى الله عليه وسلم (أشد الناس عذاباً يوم القيامة المشاءون بالنميمة والقاطعون بين الإخوان) والنميمة أشد من الغيبة لأن فيها الغيبة وزيادة، ويقال إن صاحبها فتش عنه فلم يوجد إلا ابن زنا. وقال صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة قتات) والقتات النمام، والإجماع على تحريمها لأنها تؤدي إلى التقاطع والتدابر المنهي عنها، قال صلى الله عليه وسلم (لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً) وكذلك يحرم الكلام بسائر الباطل ككثرة المزاح وغيره مما لا يعني لأن كثرة المزاح تؤدي إلى ذهاب الهيبة والوقار، ولذا قال بعض الحكماء: لا تمازح الشريف فيحقرك ولا الدنيّ فيتجاسر عليك.

(98/1)

ومن الباطل تزكية الإنسان نفسه وذم الطعام، بل إن أعجبه أكله وإلا تركه، واللعنة فلا يجوز لعن إنسان معين وإن كان كافراً، وأما لعن الجنس فيجوز لخبر (لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) (لعن الله

السارق يسرق البيض فتقطع يده)، وقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه من أنواع الباطل المتعلق باللسان عشرين آفة ومن أراد استيفائها فعليه بكتاب إحياء علوم الدين فإنه أجاد فيها وأفاد وسأسردها تنبيهاً بالأقل على الأكثر،، الأولى الكلام فيما لا يعني وهو مالا يعود به على الإنسان منفعة في دنياه ولا في آخرته، ولذا قيل إن العاقل لا ينبغي له أن يُرى إلا ساعياً في تحصيل حسنة لمعاده أو درهم لمعاشه. وقال بعض الحكماء من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه،، والثانية فضول الكلام كتكرار مالا فائدة في تكراره والإتيان بالألفاظ المستغنى عنها وذكر الله في غير محل التعظيم كقوله اللهم اخز هذا الكلب أو الحمار وفضول الكلام لا تنحصر بل المهم محصور في قوله تعالى{لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس}.

(99/1)

والثالثة الخوض في الباطل مثل حكاية أحوال النساء ومجالس أهل الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك، والرابعة المراء والجدال في الدين قال صلى الله عليه وسلم (لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه) وقال صلى الله عليه وسلم (ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته)، والخامسة الخصومة واللدد والخصومة وراء الجدال والمراء، فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار مزية الكياسة، والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والخصومة لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود وذلك تارة بأن يكون ابتلاء وتارة يكون اعتراضاً، والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق واللدد اشتداد الخصومة، ومنه سمي الألد، قال صلى الله عليه وسلم (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم) وقال صلى الله عليه وسلم (من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع).

(100/1)

وقال بعضهم: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين. ويقال ما خاصم وَرِعٌ قط في الدين. والسادسة التصنع في الكلام كتكلف السجع ونحوه، والسابعة السب والفحش، والثامنة اللعن لإنسان أو حيوان أو جماد، والتاسعة الغناء والشعر، والعاشرة كثرة المزاح والإفراط منه، والحادية عشر الاستهزاء والسخرية ويكون بالأقوال والأفعال والمحاكات، الثانية عشر إفشاء السر وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء، قال النبي صلى الله عليه وسلم (إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة) وقال (الحديث بينكم أمانة)، والثالثة عشر الوعد الكذوب إذ هو من علامات النفاق، والرابعة عشر الكذب

وأحرى في اليمين، والخامسة عشر الغيبة، والسادسة عشر النميمة، والسابعة عشر كلام ذي اللسانين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، والثامنة عشر المدح، لما قد يكون فيه من الكذب والرياء ومدح الظالم ولما يدخل على الممدوح من الكبر والعجب والرضا عن النفس ونحو ذلك.

والتاسعة عشر الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما ما يتعلق بالله وصفاته، مثال ما روى حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت لكن ليقل ما شاء الله ثم شئت) وذلك لأن العطف بالواو يوهم التشريك، وقال صلى الله عليه وسلم (لا تقولوا للمنافق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم) وقال صلى الله عليه وسلم (من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كما قال أو كاذباً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً) حكاية: يروى أن رجلاً سعى بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل فقال
فأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً

فخنت وإما قلتَ قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا

بمنزلة بين الخيانة والإثم

(101/1)

العشرون سؤال العوام عن غير ما كلفوا به من علم العقائد كسؤالهم عن الحروف هل هي قديمة أو حادثة ونحو ذلك. انتهى باختصار كثير، وبعضهم بالمعنى كما في ميارة الكبير، وقد لفق ميارة الكبير هذه الآفات في أبيات فقال:
وللكلام من الآفات فاستمعن

عشرون خذ عدها عن عالمٍ وجلِ

ما ليس يعنيك والفضول فاجتنبن

والخوض في باطل مراء مع جدل

خصومة وتصنع الكلام وزد

سباً ولعنا غنا كشاعر فحل

قدح وسخرية وعد كذوب كذا

إفشاء سرٍ مع الكذاب في الحيل

نميمة غيبة مدح يضاف لها

ومن له فاعلمن وجهان كالجبل

والسهو عن خطأ لذي الكلام وزد

شغل ذوي الجهل بالتوحيد والعلل

من غير ما كُلفوا خوضاً به وهنا

قد تم ما رمت بالتفصيل والجُمل

ويكفي من ذم الكلام أنه لو كان فضة لكان السكوت ذهباً، وفي ذلك قيل:
ولو يكون القول في القياس

من فضة بيضاء عند الناس

إذاً لكان الصمت من عين الذهب

فافهم هداك الله آداب الطلب

ثالثة الجوارح السمع،، اعلم أن المحارم السمعية هي عين اللسانية فكل ما لا يجوز النطق به لا يجوز سماعه، فقد قال صلى الله عليه وسلم (المستمع شريك القائل) وقال في السامع للغيبة أنه أحد المغتابين وقال (من تسمع حديث قوم بغير إذنهم صبّ في أذنه الآنك – وهو الرصاص المذاب – يوم القيامة) وفي المعنى لبعض الشعراء :

تحر من الطرْق أوسطها

وعَدِّ عن الجانب المشتبه

وسمعك صن عن سماع القبيح

كصون اللسان عن النطق به

فإنك عند سماع القبيحْ

شريك لقائله فانتبه

(102/1)

قال في الرسالة: ولا يحل لك أن تتعمد سماع الباطل كله،، قال الشيخ الجزولي: يشمل الغناء والملاهي الملهية والغيبة وسماع كلام امرأة لا تحل لك وسماع المخلقين للقصص وغيرها. ومفهومه أنه إذا لم يتعمد فلا إثم عليه ولكنّ ذلك إذا سمعه وألغاه وأعرض عنه كالنظرة الأولى، فأما إذا سمعه فتمادى على سماعه فهو مأثوم، والأصل في ذلك قوله تعالى {وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه} واللغو الباطل والقول القبيح أو مالا ينفع في دين ولا دنيا أو هو الساقط من الكلام، ومن شأن الكرام إعراضهم عن أنواع اللغو كلها وسترها كما قيل:

إذا رأيت أثيما

كن ساتراً وحليما

يا من يقبّح لغوي

لمْ لا تمرُّ كريما

واعلم أن اللغو عند أرباب الحقيقة ما يشغلك عن العبادة وذكر الحق وكل كلام بغير خطاب الحال والواقعة وطلب ما سوى الله، {وإذا سمعوا} مثل هذا {اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا} في بذل الوجود المجازي لنيل الوجود الحقيقي {ولكم أعمالكم} في اكتساب مرادات الوجود المجازي واستجلاب مضرات الشهوات وترك الوجود الحقيقي والحرمان من سعادة الانتفاع بمنافعه {سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين} الغافلين عن الله، وطلب المحجوبين عن الله بما سواه. قاله روح البيان وبقي من كلامه شيء فلينظره من أراده.

(103/1)

... ثم قال الشيخ الجزولي عند قوله < ولا سماعِ شيء من الملاهي والغناء > والملاهي آلة الغناء كالمزمار والأوتار وما أشبه ذلك، والغناء ممدود وهو كلام موزون طيب مفهوم المعنى محرك للقلب، وتحريم سماع الملاهي والغناء عام في الرجال والنساء، وإذا حرم سماع الملاهي على الانفراد فأحرى إذا اجتمعا، وظاهره سواء اتخذ ذلك حرفة أو أكثر التردد إليه أم لا، أما إن اتخذه حرفة أو أكثر التردد إليه فلا خلاف في المذهب أنه حرام وأن ذلك جرح في شهادته وإمامته، واختلف فيمن ليس ذلك حرفة له وقل حضوره له فقيل حرام وقيل مباح، وروي في مذهب مالك تحريم الغناء واستماعه سواء كان بآلة أو بغير آلة إلا الدف في النكاح والكبر على خلاف، وروي في مذهب الشافعي إجازته إذا كان بغير آلة، ويروى أنه إذا كان يحرك ما في القلب من الخوف ومحبة الله تعالى كان مندوباً إليه، وإن كان يحرك محبة المخلوق لغلبة الشهوة وتمكنه من الشبيبة فالسماع في حقه حرام، ومن لم يتصف بأحد الوصفين المتقدمين واتخذه مستراحاً يتقوى به على حاله فهو مكروه عند أهل الفضل والدين لأنه لهو ولعب.

(104/1)

... واختلف عندهم في التواجد فقيل لا يجوز وإن من أحسن الأدب الإصغاء وترك المشقة والحركة، وخصوصاً الشباب بين يدي المشايخ والمبتدئ بين يدي المنتهي، وذهب بعضهم إلى جوازه رجاء لتحقيق الوجد، وهذا الخلاف إنما هو فيمن ليس مغلوباً على عقله وأما المغلوب فمعذور اتفاقاً، وهنا بحر لا ساحل له لو تتبعته لاحتجت إلى مجلدات لأن خبر السماع كثير فيه الكلام، ومن أراد استيفاء الكلام فعليه بإحياء علوم الدين فقد أجاد فيه وأفاد. واعلم أن تهييج الصوت الحسن لما هو كامن في الباطن مما

لا يكذب فيه إلا من هو أدنى طبيعة من الحمار، لأن ما هو في الباطن يكمن ككمون النار في الحجر، والصوت الحسن له كالزناد، ولا تظن أن ذلك لفهم المعنى بل ذلك ثابت في كل الحيوانات وخصوصاً الإبل، فإنها كلما طالت عليها البراري وسمعت الحداء مدت أعناقها وطوت المراحل، ويقال إن الطير كانت تقف على رأس داوود عليه السلام لاستماع صوته.

... حكاية: يروى أن طائراً عظيماً يقال له الفقَنَّس بمنقره أربعون ثقباً يصوت بكل الأنغام والألحان العجيبة المطربة، يأتي إلى رأس جبل فيجمع من الحطب ما شاء، ويقعد ينوح على نفسه أربعين يوماً، ويجتمع إليه العالم يستمعون إليه ويتلذذون، ثم يصعد الحطب ويصفق بجناحيه فينقدح منه نار ويحترق الحطب والطائر ويبقى رماداً، فيتكون منه طائر مثله. ذكره ابن سينا في الشفا. قاله القاموس. وفي معناه قلت:

شوقي علا ومُدَعْمَسٌ ومُدَغْمَسُ

ومُدخْمَسٌ ومُدَهْمَسٌ ومُنَهْمَسُ

ستراً بجسمي عن سواي فكلما

صبحي مسائي في اشتياق فقنَّس

الألفاظ الخمسة التي في البيت الأول معناها كلها مستور أعني أن شوقي علا أي ارتفع والحال أنه مستور لأجل ستره في جسمي عن غيري، وأني في كل صبحي ومسائي كأني هذا الطائر الذي يفنى ويبعثه الله، وهذا الذي يمكن من العبارة وأما مالا يمكن فإنه لا يمكن،،.

(105/1)

... ومما يدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده به إذ قال {يزيد في الخلق ما يشاء} فقيل هو الصوت الحسن، وفي الحديث (ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت) وقال صلى الله عليه وسلم (لله أشد إذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته) والقينة الأمة المغنية أو أعم. وفي الحديث في معرض المدح لداوود عليه السلام أنه كان حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والوحوش والطير لسماع صوته، وكان يحمل من مجلسه أربعمائة جنازة

وما يقرب منها في الأوقات. وقال صلى الله عليه وسلم في مدح أبي موسى الأشعري (لقد أعطي مزماراً من مزامير آل داوود).

... وليس العيب في نفس الصوت الحسن إنما يكون العيب فيما يعرض فيه غالباً من تهييج ما ليس في طريق الله والاجتماع له، وذلك مذموم في كل حال، فلينظر المرء في الحال لأن لكل حال مقال.

... رابعة الجوارح اليد،، واليد نعمة من الله في الجوارح جعلها الله لدرء ما يخشى منه على البدن وتناول ما ينفعه، وقد حرم على صاحبها أن يتناول بها مالا يحل له بالسرقة أو الغصب أو لمس ما لا يحل لمسه من أجنبية أو غيرها، وقد عظم الله قيمتها إن لم تسرق بخمسين إبلاً وأرخصها إن سرقت بثلاثة دراهم، قال تعالى {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما}. تنبيه: يقال إن الله تبارك وتعالى بدأ في السرقة بالرجل وفي الزنا بالمرأة بقوله {الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما} الآية، لأن السرقة تفعل بالقوة والرجل أقوى من المرأة، والزنا يفعل بالشهوة والمرأة أكثر شهوة، والمرأة أدعى من الرجل إلى نفسها منه إليها، ولهذا لو اجتمع جماعة على امرأة لم يقدروا عليها إلا بمرادها.

(106/1)

... تنبيه أيضاً: اعلم أن السرقة كما تكون من المال كذلك تكون من العبادات، وفي الحديث (أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، قالوا يا رسول الله كيف يسرق من صلاته قال لا يتم ركوعها ولا سجودها) وفي الحديث (إن الرجل ليصلي ستين سنة وما تقبل له صلاة لعله يتم الركوع ولا يتم السجود ويتم السجود ولا يتم الركوع) كذا في الترغيب والترهيب وروح البيان. فمثل هذا المصلي يقطع يمينه عن نيل الوصال فلا يصل إلى مراده، بل يبقى في الهجران والقطيعة إذ هو أساء الأدب بل قصر فيما أمر الرب سبحانه وتعالى به.

... فائدة: يقال إن طول السجود والركوع يوسع الرزق. قال إبراهيم النخعي: إذا رأيت رجلاً يخفف الركوع والسجود فترحم على عياله. يعني من ضيق المعيشة.

... خامسة الجوارح البطن،، وحفظ البطن من الحرام واجب كتاباً وسنة وإجماعاً، أما الكتاب فقد قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات من رزقناكم} وقال {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً} وقال {يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً} قال ابن عباس: وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين وقدم تعالى أكل الحلال على صالح الأعمال، تنبيهاً على أن الانتفاع بالأعمال لا يتوصل إليه إلا بعد إصلاح الرزق واكتسابه من حله، ولهذا قال بعض الحكماء: من أكل الحلال أطاع الله أحب أم كره

ومن أكل الحرام عصى الله أحب أم كره لأنه إذا أكل الحلال شربت عروقه منه ونشطت للعبادة، وإذا أكل الحرام شربت عروقه منه وكسلت عن العبادة.

(107/1)

... وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم (طلب الحلال فريضة على كل مسلم) وقوله (إن لله ملكاً على بيت المقدس ينادي كل يوم ألا من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل) قال أبو حامد الصرف النافلة والعدل والفريضة. والإجماع على أن طلب الحلال فرض عين على كل مكلف، واختلف في الحلال هل هو موجود أم لا فقيل إنه موجود وإنما قلّ طلابه وقيل هو ضالة مفقودة، واختلف أيضاً هل هو ما جهل أصله أو ما علم أصله. وقال بعض العلماء أصول الحلال عشرة: صيد البر وصيد البحر وتجارة بصدق وإجارة بنصح والفيء إذا قسم على وجهه وميراث عن أصل طيب وماء الغُدر وما أنبتته الأرض غير المتملكة وهدية من أخ صالح والسؤال عند الحاجة. ولبعضهم في ذلك:

يا صاح إن للحلال الحر

عشر أصول هي صيد البر

ومورَثٌ حل وماء الغُدر

ثم هدية المحب فادر

من حله لله لا للشكر

وصنعةٌ بالنصح لا بالنكر

والتجر بالصدق وصيد القفر

ثم السؤال عن شديد الفقر

ونبت أرضٍ لم تكن للغير

والفيء يقسم بغير جور

وانفرد الثعالبي بالمهر

فزاده موافقاً للعشر

لنص تقييد الجزولي الحبر

جزاه ربنا بكل خير

(108/1)

... ويدخل في حفظ البطن عن الحرام ما حرم أكله كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة وما ذكر معها في الآية إذا أنفذت مقاتلها أو لم تنفذ وأيس من حياتها، على خلاف في التي لم تنفذ مقاتلها، وكذا الخمر وغيرها من المسكرات قليلها وكثيرها والحشيشة كذلك. وأما الأفيون وغيره من المفسدات فلا يحرم منه إلا القدر المؤثر في العقل، ويجوز استعمال اليسير منه الذي لا يؤثر لدواء ونحوه. قال ميارة رحمه الله: وقد اختلفت فتاوي شيوخنا فمن قبلهم ممن قرب عصره في استفاف دخان العشبة المسماة على لسان متعاطيها بطابة، فمنهم من شدّدّ المنع في ذلك ومنهم من أجازه لمن احتاج له لمرض ونحوه ولم يقطع بتحريمها، تنبيه: اعلم أنه لا خصوصية للبطن بالحفظ من الحرام بل وكذلك سائر الجسد فكما لا يحل لك أن تأكل إلا طيباً أي حلالاً لا يحل لك أن تلبس إلا طيباً ولا تسكن إلا طيباً ولا تركب إلا طيباً، ويجب عليك أن تستعمل سائر ما تنتفع به طيباً كما في الرسالة وغيرها.

... وأما ترك المشبهات فمطلوب أيضاً والأصل في ترك المشبهات ما أخرجه أهل الصحيح عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي

القلب) وحاصل ما يقال في المشتبه أنه ما لم يتضح حله أو تحريمه ولو اختلفت فيه العبارات وذلك هو الذي في الحديث، وفي الحديث (ما جاءك من غير مسألة ولا استشراف نفس فخذه فإنما هو رزق الله).

(109/1)

... سادسة الجوارح القدم ،، ويحرم على صاحبها أن يسعى بها إلى مالا يحل له من زنا أو غصب أو غيرهما، أو أن يمشي بها في حائط غيره أو فدانه إذا كان يتضرر بذلك، وكذلك لا يحل له أن يسعى بها إلى أبواب الظلمة وأبواب الأغنياء لأجل غناهم، لقوله عليه الصلاة والسلام (من تواضع لغني لأجل غناه فقد ذهب ثلثا دينه) قال أبو عمر: هذا للغني الشاكر فما بالك بغيره. وإنما المطلوب بالسعي على القدمين السعي لحوائج المسلمين ومنافعهم والسعي للمساجد ونحوها.

... سابعة الجوارح الفرج ،، وهو أشد هذه الجوارح كلها لأن مباشرته أشد من مباشرة غيره جميعاً، بل غيره كله صغير بالنسبة لكبيرته، ولو ورد في غيره ما ورد من التحذير، وكل شيء يفعل به غير ما يفعل مع الزوجة والأمة المملوكة للشخص فهو حرام من زنا ولواط ومساحقة ووطء بهيمة واستمناء ونحو ذلك كله. قال تعالى {والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون} أي الظالمون المتجاوزون للحد من الحلال إلى الحرام، وما من فاحشة بالفرج إلا وقد عذب بها قوم أعاذنا الله وأحبائنا من ذلك، وليس ذلك في غيره من الجوارح، وأعظم ما فعل به اللواط ويكفيك أن الله خسف بفاعليه ورجمهم {بحجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك}، ثم قال {وما هي من الظالمين ببعيد} فالسجيل الطين المتحجر والمنضود المتتابع كقطر الأمطار، والمسومة المعلمة لأنها لا تشبه حجارة الدنيا، والمراد بفاعليه هنا قوم لوط عليه السلام، وسمي لوط بهذا الاسم لأن حبه لاط بقلب إبراهيم أي التصق. قاله نزهة المجالس.

(110/1)

... ثم الزنا بالمحصنة (1) والجميع لا خير فيه، قال تعالى {ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) أي بئس طريق الزنا لأنه يجر صاحبه إلى النار، وهو طريق أيضاً إلى قطع الأنساب وتهييج الفتن، وذلك أنه يقال إن الله تبارك وتعالى شرع القصاص حفظاً للنفوس والأطراف، وشرع القطع في السرقة حفظاً للأموال، وشرع الحد في شرب الخمر حفظاً للعقول، وشرع الحد للزنا حفظاً للأنساب، وفي القذف حفظاً للأعراض، وشرع الجهاد وقتل الزنديق والمرتد حفظاً للأديان. وفي الحديث (إذا زنا العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة، فإذا انقطع رجع إليه الإيمان) وقيل إن الزنا يشتمل على أنواع المفاسد المعصية

وإيجاب الحد على نفسه، ومنها اختلاط الأنساب، فلا يعرف الرجل ولَدُ مَنْ هو، ولا يقوم أحد بتربيته، وذلك يوجب ضياع الأولاد وانقطاع النسل، وذلك يوجب خراب العالم فنعوذ بالله مما يؤدي لغضبه وعذابه.

... وقد روي عن بعض الصحابة أنه قال: إياكم والزنا فإن فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا فنقصان الرزق ونقصان العمر والبغض في قلوب الناس، وأما التي في الآخرة فغضب الرب وشدة الحساب والدخول في النار. وفي الخبر (العينان تزنيان واليدان تزنيان) فنسأل الله أن يعفو عنا وعن أحبتنا ما قدّمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا. وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: أحب للرجل إذا وقع في حَدٍّ أن يستر نفسه ويستغفر الله تعالى ولا يأتي إلى الحاكم يطلب التطهير فإن الله يقبل التوبة عن عباده والحمد لله رب العالمين.

---

(1) معطوف على: وأعظم ما يفعل به – أي الفرج – اللواط.

اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك ونستغفرك للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، فاغفر لنا ولهم برحمتك يا أرحم الراحمين ما فعلناه بهذه الجوارح السبعة وغيرها من أبداننا إنك أنت التواب الرحيم العفو الكريم. ثم قلت غفر الله لي ما قلت وما فعلت:
{والصبرِ والحلمِ والعفافِ والكرم

واتقى الورى أكرم الورى لتستمعِ}

... أعني أن الطريق إلى الله تعالى أيضاً تكون بالصبر، والمراد به هنا الثبات على الكتاب والسنة، والأصل في الصبر حبس النفس على كريه يتحمله صاحبها أو لذيذ يفارقه، وتكون بالحلم وهو أعلى من الصبر لأن الصبر عبارة عن الثبات على أمرٍ مع كراهية النفس له، والحلم عبارة عن الثبات الذي لا كراهية معه وهو كثيراً ما يكون نتيجة عن الصبر لأن الصبر هو التحلم أي تكلف الحلم قال صلى الله عليه وسلم (إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتمن الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه). وتكون بالعفاف أي الامتناع عما لا يحسن شرعاً أو طبعاً، والمراد ما يخل بالمرء في دينه أو مروءته، والعفاف صفة ممدوحة حث عليها صلى الله عليه وسلم بقوله (عُفُّوا تعفَّ نِسَائُكُمْ) قال شارح الجامع الصغير: قال في المصباح: عفّ عن

الشيء عفا من باب ضرب، وعفة بالكسر وعفافاً بالفتح كف عنه. أي كفوا عن الفواحش تكف نساؤكم عنها، وقال صلى الله عليه وسلم (عُفُّوا تَعُفَّ نِسَائُكُمْ وبُرُّوا آبَائَكُمْ تَبُرُّكُمْ أبنائُكم ومن اعتذر إلى أخيه المسلم من شيء بلغه عنه فلم يقبل عذره مُحِقّاً كان أو مُبطلاً لم يَرِدْ عَلَى الحوض) ولذا قيل:
إقبل معاذير من يأتيك معتذراً

إن برّ عندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من يرضيك ظاهره

وقد أجلك من يعصيك مستترا

(112/1)

وقال صلى الله عليه وسلم (من عشق فعفَّ ثم مات مات شهيداً) قوله (فعفَّ) أي كف عن فعل المحرمات فلا يقع منه نظر محرم ولا غيره كأن سمع صوت محبه أو لاحت منه نظرة من غير قصد محبه لأن العشق وإن كان مبدؤه النظر لكنه غير موجب له فهو فعل الله بالعبد بلا سبب، والعشق المحبة مع تخلل الحب في القلب، فهو أخص من المحبة.

... وتكون الطريق إلى الله تعالى أيضاً بالكرم وهو سخاوة النفس لأن الكريم المتفضل الذي يعطي من غير مسألة ولا وسيلة ولذلك وُصف تعالى به، والسخاء الذي هو الكرم من أوصاف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو أصل من أصول النجاة، وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال (السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة) وقال جابر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال جبريل عليه السلام قال الله تعالى إن هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتم) وفي رواية (فأكرموه بهما ما صحبتموه) وعن عائشة الصدِّيقة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما جبل الله تعالى ولياً إلا على حسن الخلق والسخاء) وعنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الجنة دار الأسخياء)، وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، وإن البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار وجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل وأدوأ الداء البخل).

... وعن جابر قال قيل يا رسول الله أي الأعمال أفضل قال (الصبر والسماحة) والكرم أيضاً التقوى قال صلى الله عليه وسلم (الكرم التقوى والشرف التواضع) ولذلك قلت {أتقى الورى أكرم الورى لتستمع} أعني أن أتقى الورى أكرم الورى أي الخلق أكرمهم أتقاهم لقوله تعالى {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} قيل أكرم الكرم التقوى وألأم اللؤم الفجور، وقال ابن عباس كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى. وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحسب المال والكرم التقوى) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أكرم؟ قال (فأكرمهم عند الله أتقاهم) قالوا ليس عن هذا نسألك قال (فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله)، قالوا ليس عن هذا نسألك قال (فعن معادن العرب تسألون) قالوا نعم قال (فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) فقهوا بضم القاف على المشهور وحكي كسرها ومعناه إذا تعلموا أحكام الشرع.

... عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه، فلما خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال ثم قال فخطبهم فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال (الحمد لله الذي أذهب عنكم عبِّيَّةَ الجاهلية وتكبرها، يا أيها الناس إن الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله ثم تلا {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى} قال أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم) والمحجن كمنبر عصا محنية الرأس أي معوجته وقوله عبِّيَّةَ (1) الجاهلية بالعين المهملة يعني كبرها وفخرها.

---

(1) قوله (عبيه) بكسر العين المهملة وضمها وكسر الباء الموحدة المشددة وفتح الياء بعدها المشددة التحتية المثناة الكبر والفخر والنخوة كما في الشرح. انتهى

... ويقال التقي هو العالم بالله المواظب على الوقوف ببابه المتقرب إلى جنابه، وقيل حَدُّ التقوى أن يجتنب العبد المناهي ويأتي بالأوامر والفضائل ولا يغتر ولا يأمن، فإن اتفق أن يرتكب منهياً لا يأمن ولا يتكل بل يتبعه بحسنة ويظهر عليه توبة وندامة، ومن ارتكب منهياً ولم يتب في الحال واتكل على المهلة وغره طول الأمل فليس بمتق لأن المتقي لم يترك ما أُمر به، ويترك ما نهي عنه وهو مع ذلك خاشٍ لله خائف منه لا

يشتغل بغير الله فإن التفت لحظة إلى نفسه وأهله وولده جعل ذلك ذنبه واستغفر منه وجدد له توبة جعلنا الله وإياكم من المتقين. وقال صلى الله عليه وسلم (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) قال الرازي في المراد بالآية وجهان الأول أن التقوى تفيد الإكرام، الثاني أن الإكرام يورث التقوى كما يقال المخلصون على خطر، والأول أشهر والثاني أظهر، فإن قيل التقوى من الأعمال والعلم أشرف لقوله صلى الله عليه وسلم (لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد) أجيب بأن التقوى ثمرة العلم لقوله تعالى {إنما يخشى اللهَ من عبادهِ العلماءُ} فلا تقوى إلا للعالم، فالتقي العالم أثمر علمه والعالم الذي لا يتقي كشجرة لا ثمر لها لكن الشجرة المثمرة أشرف من التي لا تثمر بل هي حطب، قال الحسن البصري إنما الفقيه العامل بعلمه. أي وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) ومن قوله عز من قائل {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} فإن قيل خطاب الناس بقوله تعالى {أكرمكم} يقتضي اشتراك الكل في الإكرام ولا كرامة لكافر فإنه أضل من الأنعام أجيب بأن ذلك غير لازم مع أنه حاصل بدليل قوله تعالى {ولقد كرمنا بني آدم} لأن كل من خلق فقد اعترف بربه ثم من استمر عليه وزاد زيد في كرامته ومن رجع عنه أزيل أكثر الكرامة. انتهى من السراج المنير، والبعض من الخازن.

(115/1)

قال صاحب نتائج الأفكار: اعلم أنه تعالى أكرم المتقين بكرامات، الأولى العلم، قال تعالى {واتقوا الله ويعلمكم الله}، الثانية العاقبة، قال تعالى {والعاقبة للمتقين} يعني الجنة وفي ذلك بشارة بأن عاقبتهم محمودة وأنه لا مؤاخذة عليهم، وفيه تحريض على الأخذ بكل سبب من أسبابها، الثالثة العرفان، قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً} قال سهل: يعني نوراً في القلب يفرق به بين الحق والباطل، الرابعة محبة الله تعالى لهم، قال تعالى {إن الله يحب المتقين}، الخامسة نصره تعالى لهم، قال تعالى {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} قال الفضيل رحمه الله: أي اتقوا الله فيما نهاهم عنه وأحسنوا فيما أمرهم به، السادسة الحسنة، قال تعالى {للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير}، السابعة النجاة، قال تعالى {ثم ننجي الذين اتقوا}، الثامنة ركوب النوق من القبور إلى القصور، قال تعالى {يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً} أي ركباناً على الإبل، قال علي كرم الله وجهه: ما يحشرون والله على أرجلهم ولكنهم يحشرون على نوق أرجلها الذهب ونجائب سروجها اليواقيت، التاسعة الكرامة، قال تعالى {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} قال بعضهم: يستدل على تقوى الرجل بثلاث خصال حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نزل وحسن الصبر فيما قد فات.

(116/1)

العاشرة القبول، قال تعالى {إنما يتقبل الله من المتقين}، وفي الرقائق عن فضالة بن عبيد: لأن أكون أعلم أن الله تقبل مني مثقال ذرة أحب إلي من الدنيا وما فيها. الحادية العشر وقاية العذاب، قال تعالى {إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم}، الثانية عشر جوار الله تعالى ، قال تعالى {إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر}، الثالثة عشر المخرج، قال تعالى {ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب} الرابعة عشر اليسر، قال تعالى {ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً}، أي يسهل عليه أمر الدارين ويخلصه من شدائدهما، الخامسة عشر والسادسة عشر التكفير وعظم الأجر، قال تعالى {ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا} السابعة عشر الجنة، قال تعالى {تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً} الثامنة عشر الفوز، قال تعالى {إن للمتقين مفازاً} أي فوزاً ونجاةً من النار، التاسعة عشر الرحمة، قال تعالى {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون} العشرون إصلاح الأعمال، قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم} أي يزكيها ويقبلها {ويغفر لكم ذنوبكم} أي يسترها أو يمحها {ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما} أي نال غاية مطلوبه.

قولي آخر البيت (لتستمعِ) أي لتسمع ما قلته لك سماع قبول لأنه الفائدة،، ثم قلت:

{والشكرِ إن الذي الإلهَ قد شكرا

يزيده ويُرى بالخير ذا تَرَعِ}

(117/1)

الترع كصرد جمع ترع بالضم وهو الباب، أعني أن الطريق إلى الله تكون أيضاً بالشكر، ثم رغبت في الشكر بقولي إن الذي ...، أعني أن الذي قد شكر الإله يزيده في النعم ويرى حال كونه ذا أي صاحب ترع أي أبواب بالخير بمعنى أن أبواب الخير تفتح له بسبب الشكر لقوله تعالى {لئن شكرتم لأزيدنكم}. اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال {ولذكر الله أكبر} فقال تعالى {فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون} وقال تعالى {ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم} وقال تعالى {وسنجزي الشاكرين} وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين {لأقعدن لهم صراطك المستقيم} قيل هو الشكر، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال {ولا تجد أكثرهم شاكرين} وقال تعالى {وقليل من عبادي

الشكور} وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى {لئن شكرتم لأزيدنكم} واستثنى في خمسة أشياء، في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى {فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء} وقال {فيكشف ما تدعون إليه إن شاء} وقال {يرزق من يشاء بغير حساب} وقال {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} وقال {ويتوب الله على من يشاء}.

(118/1)

... وهو خلق من أخلاق الربوبية، إذ قال تعالى {والله شكور حليم} وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى {وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده} وقال {وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين} وقال صلى الله عليه وسلم (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر) وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة) قيل ومن الحمادون؟ قال (الذين يشكرون الله تعالى على كل حال) وفي لفظ آخر (الذين يشكرون الله على السراء والضراء) ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه أي المال نتخذ فقال عليه الصلاة والسلام (ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً) فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن المال.

... وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الشكر نصف الإيمان. تنبيه: اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل، فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان، فيكون الجميع قاصراً على المنعم كما قيل:
أفادتكم النعماء مني ثلاثة

يدي ولساني والضمير المحجبا

والمراد بقوله هنا يدي أي جوارحي. ومن أراد استيفاء الكلام على الشكر فعليه بإحياء علوم الدين، وأما أنا فإني مقر بعدم استيفاء الكلام عليه إلا أني أقول الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده على ما أولاني من الدنيا والدين. ثم قلت غفر الله لي ما قلت وما فعلت:

والسَّعْيِ في مَطْلَبٍ للهِ مُعتَقِداً

وَاحْذرْ تُدنسه العصيان كالخِدَعِ

(119/1)

أعني أن الطريق إلى الله تعالى أيضاً تكون بالسعي في الأمور المطلوبة لله أي لوجه الله تعالى، وذلك بكون المرء لا يسعى إلا في مطلبه بأن لا يريد إلا شيئاً يصلح لمطلوبه من طاعته ونحوها من منافع المسلمين حال كونه معتقداً ذلك أي ناوياً له بقلبه مع سعيه أي علمه بجوارحه، قولي: واحذر أعني أنك تحذر أيها الطالب لطريقة الله من أن يدنس سعيك العصيان أي المعاصي كما تحذر أيضاً من تدنيسه بما هو كالخدع أي المخادعة وذلك بأن يظهر المرء أنه ساعٍ في مطلبه ومع ذلك هو على خلاف ذلك لأن هذا من باب المخادعة التي من وصف المنافقين، قال تعالى {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم} أي يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر وهو فاعل بهم ما يفعل المغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعد لهم الدرك الأسفل من النار في العقبى.

... والمنافق من أظهر الإيمان وأبطن الكفر والخادع اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه، وقيل يجزيهم جزاء خداعهم وقيل إنهم يعطون نوراً يوم القيامة كما يعطى المؤمنون فيمضي المؤمنون بنورهم على الصراط ويطفأ نور المنافقين. ثم قلت غفر الله لي ما قلت وما فعلت:
{وذي طريقتنا خذها وضابطها

مستحسن الشرع لا سواه فاتبعِ}

(120/1)

أعني أن هذه الأوصاف التي ذكرت لك هي طريقتنا التي ندعو لها مخلوقات الله، وإنما فعلت ذلك اقتداءً بكتاب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني} أي هذه طريقي التي أدعو أي أنادي إليها وهي توحيد الله عز وجل ودين الإسلام الذي هذه الأوصاف المتقدمة كلها فيه وجاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هي طريقته التي لا اعوجاج فيها ومن شك فلينظر إلى أوصافه ووصاياه فإنه لا يجد شيئاً مما تقدم خارجاً عنها البتة، وأعوذ بالله أن يكون ذلك تزكية للنفس لا وكلا، ولذلك قلت خذها أيها السامع لتنتفع بها وتهديك إلى الصراط السديد صراط

الله العزيز الحميد. قولي وضابطها إلخ أعني أن ضابط هذه الطريق هو المستحسن في الشرع لا غيره مما يستحسن في العوائد ويستلذ في الطبائع لأن القبيح هو ما نهى الله تعالى عنه والحسن ما لم ينه عنه، ولذلك قلت فاتبع أي اتبع أيها السامع ما أمر الله به لأنه المستحسن ولا تتبع غيره لأنه القبيح، قال سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي في مراقي السعود

ما ربنا لم ينه عنه حسن

وغيره القبيح والمستهجن

يعني أن الحسن هو ما لم ينه عنه ربنا، وغيره هو القبيح وهو المستهجن بصيغة اسم المفعول أي المستقبح، والضابط في اللغة الحافظ وفي البيت نسخة هي

{وذي طريقة أهل الله ضابطها

مستحسن الشرع لا سواه فاتبع}

خوفاً من شم رائحة تزكية النفس الذي لا يحفظ منها إلا ربنا الحافظ، ثم قلت:

{والبخسُ فيمن سعى يريد مطلبه

حتى إذا قد سعى سعى لينقطعِ}

(121/1)

أعني أن البخس أي النقص إنما هو في الذي سعى أي مشى يريد مطلبه أي مطلوبه حتى إذا قد سعى عن أهله سعى في حالة ينقطع بها، وهذا كما ترى في كثير من المتعلمين والمتصوفين فإن أحدهم ربما سار من عند أهله أنه يريد التعلم أو التصوف فإذا سار من عندهم وجاء للموضع الذي يؤخذ منه ما يريد لم يسع إلا في حالة تقطعه عما يريد من ترك التعلم وترك العبادة والسعي في البطالات والمجيء للأجنبيات وكثير مما لا يقال في جميع الحالات، ومثل هذا كمثل رجل أراد السفر إلى موضع بعيد فاشترى رواحل وأخذ زاداً مبلغاً وَقِرَبا وملأها ماءً فلما فعل هذا كله التفت إلى الرواحل فعقرها وأخذ الظروف التي فيها الزاد وشققها وخرق القِرَب وهو مع ذلك يقول أن سائر فأين السير مع هذه الحالة، كذلك من يقول أنه يريد التعلم أو التصوف ولا يسعى لهما السعي الذي يصلح لهما، ثم قلت غفر الله لي ما قلت وما فعلت آمين:

{والعزمُ إن لم يكن يقيمه عملٌ

فإنه كالهباءِ صار منتزِعِ}

(122/1)

أعني أن العزم على الشيء إن لم يكن معه عمل يقيمه أي يقوم بالجوارح إلى عمله فإنه يصير كالهباء المنتزع أي المنزوع من موضعه بريح ونحوها من غبار التراب وحطام الشجر، والهباء هو ما يرى في الكوة كالغبار إذا وقعت الشمس فيها فلا يُمس بالأيدي ولا يُرى في الظل، قال تعالى في أعمال البر التي عملها الكفار {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً} والمنثور المفرق وهو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع. واعلم أن العزم أحد ما يخطر على القلب من الخواطر بل لا يعقبه إلا حركة الأعضاء، والذي يخطر على القلب قسمه بعض أهل القلوب على خمسة أقسام، أحدها: الهاجس وهو الذي يومئ على القلب ويرجع من غير مرور، ثانيها الخاطر وهو الذي يمر على القلب من غير استقرار، ثالثها حديث النفس وهو الذي تتحدث به النفس وربما نظرت فيه هل تفعله مثلاً أو لا تفعله، لكنه ليس له كثير استقرار بل تنصرف عنه سريعاً، رابعها الهم وهو الذي يتردد في القلب كثيراً حتى يهتم المرء بفعله لكنه ربما تركه، خامسها العزم وهو الذي لا بعده إلا حركة الجوارح للأمر،،

(123/1)

فإذا تمهد لديك هذا فاعلم أنك إن عزمت على الأمر كل عزم ولم تقم إلى عمله لا يحصل لك منه شيء وهذا حث مني على أنك إن عزمت على شيء حسنٍ من علمٍ مثلاً أو عبادة أنك تقوم إلى فعله ولا تترك عزمك يسير بلا شيء كالهباء المنتزع، وإياك أن يردك عن الأمور صعوبة كلها وأنت تقدر على فعل بعضها لأن من فعل بعض أمر ودام على ذلك الفعل أتى على كله، وأما ما لا يستطاع فعل بعضه فلا سبيل إليه البتة، ولسنا بمتكلمين فيه، وأما ما يستطاع فعل بعضه فهو كمن يقدر مثلاً على حفظ بيتٍ واحد فإنه إن دام على قراءة بيت كل يوم قال من المنظومات ما يشتهي، وكذلك من يقدر على سطر بل ولو كلمة وداوم عليه فإنه ينال من العلوم بغيته، وكذلك إذا كان المرء يقدر على السير راكباً أو راجلاً إلى ميل فإنه إن شاء وصل ما شاء من البلاد، وذلك أن المرء إذا قاس ما لم ير على ما رأى تيسر عليه ما لم ير كما رأى كما قيل

من قاس مالم يره بما رأى

أراه ما يدنو إليه ما نأى

ثم قلت:

{ولا تكونوا مثالاً للتي نقضت

لغزلها خوف إبطالٍ لمنتَفِعِ}

(124/1)

أعني أني أحذركم أيها المواريد والمتعلمون وكذلك غيركم من أنكم لا تكونوا في نقض العهود مثالاً للمرأة التي نقضت غزلها بعد تحكيم إبرامه لأجل خوف إبطال العمل للمنتفع به وهذا اقتباس من معنى الآية، قال تعالى {ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة} قال الكلبي ومقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة وكانت قد اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل الإصبع وفلكة عظيمة على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف أو الشعر أوالوبر وتأمر جواريها بالغزل فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن فكان هذا دأبها، والمعنى أن هذه المرأة لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض، وكذلك من نقض العهد لا تركه ولا حين عاهد وفى به، فكذلك المريد عليه الوفاء بالعهود. ثم قلت

{وعابد فوق حرف ذمه ظَهَرا

وآخذ للهوى إلهه شنعِ}

اشتمل هذا البيت على ذم وصفين نزل بذمهما القرآن، الأول العابد على حرف أي شك والثاني آخذ الهوى إلهه أي معبوده أما الأول فقد قال تعالى فيه {ومن الناس من يعبد الله على حرف} أي شك وأصله من حرف الشيء وهو طرفه نحو طرف الجبل والحائط الذي غير مستقر فقيل للشاك في الدين إنه يعبد الله على حرف لأنه لم يدخل فيه على الثبات والتمكن أو على السراء لا الضراء ولذلك قيل {فإن أصابه

خير} أي صحة في جسمه وسعة في معيشته { اطمأن به} أي رضي به وسكن إليه {وإن أصابته فتنة} أي بلاء في جسمه وضيق في معيشته {انقلب على وجهه} أي ارتد ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر {خسر الدنيا والآخرة} أي خسر في الدنيا بالقتل وذهاب العز والكرامة عنه ولا يبقى دمه وماله مصوناً وفي الآخرة بالخلود في النار {ذلك} أي خسران الدارين { هو الخسران المبين} أي الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

(125/1)

هذه الآية نزلت في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصحّ بها جسمه ونتجت بها فرسه مهراً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيراً واطمأن له، وإن أصابه مرض وولدت امرأته جارية ولم تلد فرسه وقلّ ماله قال ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلا شراً فينقلب عن دينه وذلك هو الفتنة وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكينة وطمأنينة، ولو عبدوا الله بالشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف وقيل هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه. تنبيه: يطلق الحرف أيضاً على اللغة والقراءة وعلى الوجه، ولذلك اختُلف في معنى قوله صلى الله عليه وسلم (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف} جمع حرف مثل فِلْس وأفلُسْ أي لغات أو قراءات فعلى الأول يكون المعنى على أوجه من اللغات لأن أحد معاني الحرف في اللغة الوجه، قال تعالى {ومن الناس من يعبد الله على حرف} أي وجه واحد وهو أن يعبده على السراء لا الضراء، وعلى الثاني يكون من إطلاق الحرف على الكلمة مجازاً لكونه بعضها.

(126/1)

واختلف في المراد بالسبعة، قال ابن العربي لم يأت في ذلك نص ولا أثر وقال ابن حبان إنه اختلف فيها على خمسة وثلاثين قولاً، قال المنذري إن أكثرها غير مختار وقال أبو جعفر محمد بن سعدان النحوي: هذا من المشكل الذي لا يدرى معناه لأن الحرف يأتي لمعان، وعن الخليل بن أحمد سبع قراءات وهذا أضعف الوجوه فقد بين الطبري وغيره أن اختلاف القراء إنما هو حرف واحد من الأحرف السبعة ويشهد له ما عند الترمذي عن أبي أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل (بعثت إلى أمة أمية فيهم الشيخ الفاني والعجوز الكبيرة والغلام قال فمرهم أن يقرءوا على سبعة أحرف) كقوله هلم وتعال وأقبل وأسرع واذهب واعجل، لكن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي أي أن كل أحد يغير الكلمة بمرادفها في لغة بل ذلك مقصور على

السماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم, انظر القسطلاني ونحوه من شراح الحديث أو التفاسير أو كتب القراءات.

وأما الثاني فقد قال تعالى فيه {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه} أي هو مطواع لهوى النفس يتبع ما يدعوه إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه. وقال ابن عباس اتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركبه لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه ولا يحرم ما حرم الله، وقيل معناه اتخذ معبوده ما تهواه نفسه وذلك أن العرب كانت تعبد الحجارة والذهب والفضة فإذا رأوا شيئاً أحسن من الأول رموا بالأول وكسروه وعبدوا الآخر، وقيل إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار وهو تعجيب لحال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه عبده، ففيه استعارة تمثيلية أو حذف أداة التشبيه وكان الأصل كإلهه أي نظرت فرأيته فإن ذلك مما يقتضي التعجب، وفيه إشارة إلى أن من وقف بنفسه في مرتبة من المراتب دون المشاهدة فقد صار من أهل الهوى وعبد ما سوى المولى.

(127/1)

وفي الحديث (ما عُبِدَ تحت ظل السماء أبغض إلى الله من هوى) يقال إن الهوى إنما هو الهوان نقصت منه النون كما قال بعضهم:

نون الهوان من الهوى مسروقة

فأسير كل هوىً أسيرُ هوانِ

وقال آخر

إن الهوى لهو الهوان بعينه

فإذا هويت فقد لقيت هواناً

وقال بعضهم

فاعص هوى النفس ولا ترضها

إنك إن أسخطتها زانكا

حتى متى تطلب مرضاتها

وإنما تطلب عدوانكا

فأصل الشر متابعة الهوى والخير كله في مخالفته، ونعم ما قيل إذ قيل
إذا طلبتك النفس يوماً بشهوةٍ

وكان إليها للخلاف طريق

فدعها وخالف ما هويت فإنما

هواك عدو والخلاف صديق

ثم قلت:
{ومن إذا قيل يتقي يُرَى غَضِباً

فحسبه من وعيدٍ حيث يرتدع}

(128/1)

اشتمل هذا البيت على ذم وصف من أوصاف المخلوقات نزل القرآن العظيم بذمه وهو الشخص الذي إذا قيل له يا فلان اتق الله يغضب من ذلك، وأخبر في النظم أنه يكفيه في ذلك ما جاءه من الوعيد في القرآن حيث يرتدع، أي كان ينزجر عما هو عليه من المعاصي والذي نزل به القرآن فيه يعني قوله {ومن الناس من يعجبك قوله} أي يروقك ويعظم في قلبك ومنه الشيء العجيب الذي يعظم في النفس {في الحياة الدنيا} أي في معنى الدنيا وما يتعلق بأمرها {ويشهد الله على ما في قلبه} أي يحلف ويقول الله شاهد على ما في قلبي من محبتك ومن الإسلام {وهو ألد الخصام} أي شديد الجدال في الباطل، وقيل هو كاذب القول وقيل هو شديد القسوة في المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصِم) يعني الشديد في الخصومة، {وإذا تولى} أي أدبر وأعرض عنك بعد إلانة القول وحلاوة المنطق {سعى في

الأرض} أي سار ومشى في الأرض { ليفسد فيها} يعني بقطع الأرحام وسفك الدماء {ويهلك الحرث والنسل} أي الزرع والحيوان وإذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل، وقيل يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل، {والله لا يحب الفساد} أي لا يرضى بالمعاصي {وإذا قيل له اتق الله} أي خف الله في سرك وعلانيتك {أخذته العزة بالإثم} أي حملته العزة أي الغلظة وحمية الجاهلية على فعل الإثم، وقيل بأن يعمل الإثم وهو الظلم وترك الالتفات إلى الوعظ، وعدم الإصغاء إليه، وأصل العزة المنعة والتكبر، {فحسبه جهنم} أي كافية له جهنم جزاءً وعذاباً، وجهنم اسم من أسماء النار التي يعذب بها الكفار في الآخرة، وقيل هو اسم أعجمي وقيل بل هو عربي سميت النار بذلك لبعد قعرها أعاذنا الله منها نحن وأحبتنا، ثم قلت:

{وبيعة نكثها بالضرّ عاد على

(129/1)

ذيها بموضعه لو كان في البِيَعِ}

أصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام مثلاً ونحوه، والنكث النقض، وذيها بمعنى صاحبها، وأصل البِيَعِ معابد النصارى في البلد، أعني أن البيعة نكثها أي نقضها عاد أي رجع بالضر على صاحبها في الموضع الذي هو فيه ولو كان في بيع أي متعبدات النصارى، وليس المراد هنا قصد متعبدات النصارى لعنهم الله تعالى لأن الضرر لاحق بهم وبمن صار على ملتهم أياً كان، وإنما المراد هنا أنه لو كان في موضع عبادة أخرى، وهذا تحذير من نقض المواريد لبيعة الأشياخ اليوم وإخبارٌ بأن من نكث بيعة الشيخ لا ينفعه المجيء لشيخ آخر لأن الأشياخ بمنزلة شيء واحد، بمعنى أن من عقَّ واحداً منهم فكأنما عقهم جميعاً، كما أن من كذَّب رسولاً واحداً فكأنما كذّب الرسل جميعاً والتحذير من نقض البيعة جاء في الكتاب العزيز، قال تعالى {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه} قوله تعالى {يد الله فوق أيديهم} يريد أن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله {من يطع الرسول فقد أطاع الله} وكذلك من بايع أحداً من الأشياخ فكأنما بايع الرسول صلى الله عليه وسلم ومن نكث بيعته فكأنما نكث بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قلت،،

{والعهد من قد وفى به له عظما

أجرٌ ويؤتاهُ بارتفاعِ مرتفعِ}

(130/1)

أعني بأن من وفى بما عاهد عليه من البيعة يعظم له الأجر ويؤتاه، أي يعطى له الأجر متلبساً بارتفاع أي علو شخص مرتفع في مدارج الإسلام والإيمان والإحسان، والأصل في هذا قوله تعالى {ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيماً} يعني في الآخرة وهو الجنة، ثم قلت مبيناً لما عليه البيعة وثمنها غفر الله لي ما قلت وما فعلت

{قد اشترى الله نفساً ياله ثمناً

بجنةٍ نيل من طباع مختدعِ}

أعني أن الله تبارك وتعالى قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ويا عجباً له ثمن ناله من ناله بالجنة من أجل تركه لطباع لا تكون إلا لمختدع، اعلم أن هذا الشراء وقع ونزل به القرآن العظيم ورضي به البائع والمشتري، روي أن الأنصار لما بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً أو أربعة وسبعون من أهل المدينة، قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال اشترطت لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً واشترطت لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قال فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل أي لا نفسخه ولا ننقضه.

(131/1)

... قال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن، والله ما على وجه الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة. واعلم أيضاً أن هذه المبايعة ظاهرة وباطنة والثمن أيضاً ظاهر وباطن فالمراد بالظاهر هو الأنفُسُ تجاهد الكفار مقاتلة في سبيل الله حتى تموت والأموال تنفق في سبيل الله وفي جميع وجوه البر والطاعة ولمن فعل ذلك الجنة الظاهرة في الآخرة، والمراد بالباطنة هو الجهاد الأكبر بأن يجاهد المرء نفسه حتى يزيل عنها الطباع الخبيثة كالكبر والحسد والغباوة والحقد والعداوة ويحليها بالأوصاف الطيبة كالتواضع وسلامة الصدر والعلم ولمن فعل هذا الجنة الباطنة مع الجنة الظاهرة، {ولمن خاف مقام ربه جنتان} أي

جنة نعيم في الآخرة وجنة عرفان في الدنيا، واعلم أيضاً أن من بذل نفسه وماله في طلب الجنة فله الجنة وهذا هو الجهاد الأصغر ومن بذل قلبه وروحه في طلب الله فله رب الجنة وهذا هو الجهاد الأكبر لأن طريق التصفية وتبديل الأخلاق أصعب من مقاتلة الأعداء الظاهرة فالقتل إما قتل العدو الظاهر وأما قتل العدو الباطن وهو النفس وهواها، فإن قيل كيف يشتري أحد ملكه بملكه والعبد وماله لمولاه قيل إنما ذكر على وجه التحريض على الغزو ففيه تلطف للمؤمنين في الدعاء إلى الطاعة البدنية والمالية وتأكيد للجزاء كما قال تعالى {من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً} فذكر الصدقة بلفظ القرض للتحريض على ذلك والترغيب فيه إذ القرض يوجب رد المثل لا محالة، وكأن الله تعالى عامل عباده معاملة من هو غير مالك فالاشتراء استعارة عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة.

(132/1)

... فالله تعالى بمنزلة المشتري والمؤمن بمنزلة البائع وبدنه وأمواله بمنزلة المبيع الذي هو العمدة في العقد والجنة بمنزلة الثمن الذي هو الوسيلة، وإنما لم يجعل الأمر على العكس بأن يقال إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها إيذاناً بتعلق كمال العناية بأنفسهم وأموالهم. وعن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه كان يقول: يا ابن آدم اعرف قدر نفسك فإن الله عرفك قدرك لم يرض أن يكون لك ثمن غير الجنة، وأنشد الأصمعي لجعفر رضي الله عنه:

أثامن بالنفس النفيسة ربها

وليس لها في الخلق كلهم ثمن

بها تُشترى الجنات إن أنا بعتُها

بشيء سواها إن ذلكمُ غبنْ

إذا ذهبت نفسي بشيء أصيبهُ

فقد ذهب الدنيا وقد ذهب الثمنْ

وأنشد أبو علي الكوفي:
من يشتري قبةً في عدن عاليةٍ

في ظل طوبى رفيعات مبانيها

دلاّلها المصطفى والله بائعها

فمن أراد فجبريل مناديها

اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيداً وأشهد ملائكتك ومن وقف هنا من جميع المسلمين أني أشتري منك هذه القبة بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قولي في البيت ثمناً، إن شئت فاجعله منصوبا تمييزاً للهاء من (له) قبله وإن شئت جعلته مرفوعاً مبتدأ خبره (له) قبله، ثم قلت:

{هذا وحيث سعدت قم وخذ وتبِ

واسمع ولا تغتر والحقُّ قلت فعي}

(133/1)

أعني أن هذا الذي تقدم على ما هو عليه وحيث كتبت لك أيها السامع سعادة قم لامتثال الأمر وخذ ما أعطيتك من العلم وتب إلى الله تبارك وتعالى مما مضى لك من العمر بلا فائدة واسمع ما قلته لك سماع قبول ولا تغتر بإمهال الله لك ونعمه عليك لأن ذلك إمهال لا إهمال واعلم أني قلت الحق الظاهر الذي لا غبار عليه فعه أي احفظه واعمل به ليكون لك أجر من عمل بما علم ولعل الله يورثك علم ما لم تعلم لأن من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم. ثم قلت غفر الله لي ما قلت وما فعلت:

{صلى وسلم رب الخلق أجمعِهِ

على الذي من يرد للحب يتبع}

أعني أن الله تبارك وتعالى صلى أي جعل رحمته وسلم أي جعل أمانه على محمد صلى الله عليه وسلم الذي من يريد لمحبة الله يتبعه لقوله تعالى {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} واللفظان في البيت بمعنى الخبر والمراد الإنشاء أي الدعاء مني الآن له صلى الله عليه وسلم بزيادة الرحمة والأمان كأني قائل اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وهذا على حد {سرابيل تقيكم الحر} أي والبرد.

(134/1)

... واعلم أن العلماء اتفقوا على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما} ثم اختلفوا فقيل تجب في العمر مرة وهو الأكثر وقيل تجب في كل صلاة في التشهد الأخير وهو مذهب الشافعي وإحدى الروايتين عن أحمد وقيل تجب كلما ذكر واختاره الطحاوي من الحنفية والحليمي من الشافعية، والواجب اللهم صل على محمد، وما زاد سنة وفي مذهب مالك أنها سنة في التشهد الأخير، وفي الجواهر أنه المشهور وقيل فضيلة وهو ظاهر الرسالة وشهَّره ابن عطاء الله، وفي كتاب ابن المواز ما يقتضي الوجوب وأنكره بعضهم وتأوله. وفي الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال لقيني كعب بن عجرة فقال ألا أهدي لك هدية، إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج علينا فقلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك قال قولوا (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم على آل إبراهيم إنك حميد مجيد).

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي حميد الساعدي قال قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك قال قولوا (اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد). وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً). وفي الترمذي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات).

(135/1)

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن الله وكّل بي ملكين فلا أذكر عند عبدٍ مسلم فيصلي عليّ إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين، ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي عليّ إلا قال ذانك الملكان لا غفر الله لك وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين.

...

قال النسفي وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سره أن يكتال المكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد) أخرجه أبو داوود. تنبيه: وهنا سؤال يورده العلماء قديماً وحديثاً وهو أن القاعدة أن المشبه بالشيء أعلى رتبة أن يكون مثله وقد يكون أدنى وأما أعلى فلا يكون، ومن المعلوم المقرر في القواعد أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيم فكيف يخرج عن ظاهر هذا الحديث على القاعدة المقررة؟ وقد أجابوا عن ذلك بأجوبة كثيرة أذكر منها ثلاثة هي الأقرب،،،:

الأول أنه إنما قيل ذلك لتقدم الصلاة على إبراهيم وقول الملائكة في بيته {رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد} أي كما تقدمت منك الصلاة على إبراهيم فنسئلك منك الصلاة على محمد بطريق الأولى لأن الذي ثبت للفاضل ثبت للأفضل بطريق الأولى ولذلك ختم بما ختم به الآية وهو قوله {إنك حميد مجيد} والتشبيه إنما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة لا للقدر بالقدر فهو كقوله تعالى { إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح} وقوله تعالى {كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم} وقوله تعالى {وأحسن كما أحسن الله إليك}.

(136/1)

... الثاني أنه قال ذلك تواضعاً وشرعةً لأمته ليكتسبوا به الفضيلة والثواب. الثالث: أن الدعاء للاستقبال فما كان من خير فقد أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم قبل الدعاء، ولم يقع في التشبيه وإنما وقع في التشبيه الزائد على ما كان عنده فطلب أن يكون له مثل ما كان لإبراهيم ولأنه زيادة على ما خصه الله تعالى به قبل السؤال. انظر بقية الكلام في مطالع المسرات على دلائل الخيرات.

وليكن هذا آخر هذه الكلمات على هذه الأبيات نفع الله بالجميع في الحياة وفي الممات لنا ولأحبتنا وللمسلمين والمسلمات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وكان انتهاؤه بين الظهر والعصر يوم الاثنين لاثنين بقيا من جمادى الأولى عام سبعة بتقديم السين

بعد ثلاثمائة وألف أرانا الله خيره وخير ما بعده ووقانا ضيره وضير ما بعده نحن وأحبتنا والمسلمين آمين آمين آمين.

كمل إظهار الطريق بحمد الله وحسن عونه
وتوفيقه الحميد وصلى الله على من
لا نبي بعده
1428

فهرس الأبيات

{ اسمع ولا تغترر وما أقول فعي

إن الطريق إلى الإله بالورع }

1

{والزهدِ والصدقِ والتصديق والسهر

والخوف والجوع مع يأسٍ عن الطمعِ}

6

{والذكرِ والفكرِ واعتزال من غفلا

عن ربه واقتراب من بذين رُعي}

21

{وهمّ آخرةٍ ونبذ فانيةٍ

ونظر آتيةٍ في غير ملتمع}

43

{وحمل ما تكره النفوس قاطبة

وطرح ما ترغب الأنام مجتمع}

47

{والأمر ممتثلاً والنهي مجتنباً

وقرب ممتثلٍ وبعد مبتدع}

49

{وكفُّ سبعٍ يُرى في النَصِّ مَدْرَكُهُ

فالسبعُ إن لم تُكَفَّ فهْيَ كالسَّبُعِ}

55

{والصبرِ والحلمِ والعفافِ والكرم

واتقى الورى أكرم الورى لتستمعِ}

69

{والشكرِ إن الذي الإلهَ قد شكرا

(137/1)

يزيده ويُرى بالخير ذا تَرَعِ}

73

{والسَّعْيِ في مَطْلَبٍ للهِ مُعتَقِداً

وَاحْذرْ تُدنسه العصيان كالخِدَعِ}

74

{وذي طريقتنا خذها وضابطها

مستحسن الشرع لا سواه فاتبعِ}

74

{والبخسُ فيمن سعى يريد مطلبه

حتى إذا قد سعى سعى لينقطعِ}

75

{والعزمُ إن لم يكن يقيمه عملٌ

فإنه كالهباءِ صار منتزعِ}

75

{ولا تكونوا مثالاً للتي نقضت

لغزلها خوف إبطالٍ لمنتَفِعِ}

76

{وعابد فوق حرف ذمه ظَهَرا

وآخذ للهوى إلهه شنعِ}

77

{ومن إذا قيل يتقي يرى غضباً

فحسبه من وعيدٍ حيث يرتدع}

79

{وبيعة نكثها بالصرّ عاد على

ذيها بموضعه لو كان في البِيَعِ}

80

{والعهد من قد وفى به له عظما

أجر ويؤتاه بارتفاعِ مرتفعِ}

80

{قد اشترى الله نفساً ياله ثمناً

بجنةٍ نيل من طباع مختدعِ}

80

{هذا وحيث سعدت قم وخذ وتب

واسمع ولا تغتر والحقُّ قلت فعي}

82

{صلى وسلم رب الخلق أجمعِهِ

على الذي من يرد للحب يتبع}

82

(138/1)